الصوفية والتصوف

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة

002 022 3901030

الباب الأول

من هم الصوفية؟

معنى كلمة الصوفية:

إن هذا اللفظ لا دليل لغويا يدل على أنه مشتق من الاستصفاء، ولا من الاصطفاء، ولا من الصف، ولا من الصُّفة نسبة لأهل الصفة، ولا من الصوف، والظاهر أن مدلوله فعل ماض مبنى للمجهول خبرا عن صفاء قلب من سمي به.

أئمة الصوفية:

والصوفية إمامهم الأول بعد أمير المؤمنين على –كرم الله وجهه– سيدنا أبو ذر الغفارى، وسيدنا سلمان الفارسى –رضى الله عنهما–

الفصل الأول

تعدد مناهج الأخلاق عند الصوفية

أولاً: الصوفي قدم دار البقاء على دار الفناء وباع ما يزول بما يدوم.

معلوم أن الأشياء كلها لها ظاهر وباطن وهو لبها، فكذلك الدنيا والآخرة، وللدنيا أبناء، وللآخرة أبناء، فأبناء الدنيا شغلوا بما تقتضيه حظوظهم، وشهواقم، وأهواؤهم، وما يدعوهم إليه الحس والجسم، فرضوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا بها ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ (الرعد:٢٦). فاستخدموا جوهر النفس النوراني، ونور العقل الروحاني لتحصيل كماليات الجسد الفاني، جهلا بالآخرة، أو تجاهلا.

والصوفي عرف قدر الدنيا بالتعليم، وتحقق زوالها بالتفكير، وأيقن أن بعدها دارا هي الدار حقا، لا يسعد فيها إلا من تخلى عن دنس الأجسام، وخبث الشياطين، ودناءة البهائم، وبلادة النباتات، وثقل الجمادات، حتى يتشبه بعالم الملكوت الأعلى.

الصوفي علم قدر الدنيا والآخرة، فقدم ما يبقى على ما يفنى، وباع ما يزول بما يدوم.

ثانيا: الصوفي جاهد نفسه وانسلخ من مقتضيات نقائصه

الصوفي رأى في نفسه عوائق تعوقه عن بلوغ كماله الحقيقى، تلك العوائق راسخة في فطرته، راسية في حقيقته، جواذبها إلى الرذائل قوية، ودوافعها عن نيل

الخير شديدة، ومقتضياتها التي توبق في الدرك الأسفل من النار ملازمة، ولكنه سطعت على جوهر نفسه أنوار تلك الكمالات من جانب الروح، وناداه الحق من قبله:

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ (طه:١٢). خلقتك لذاتى، وخلقت لك كل شىء، ومنحتك الحرية والإدراة، وبينت لك الشر، وأعددت لك النظر إلى وجهي، في دار كرامتي، وجوار الأطهار المقربين ممن اصطفيتهم من خلقي، فسمع ولبى، وحن واشتاق، ثم دعته فطرته الحيوانية في دار البلية، فنظر وفكر، وتأمل وتدبر، فرأى الدنيا قد آذنته بزوالها، وأشهدته عملها في أبنائها، فرآهم بين راحل إلى القبور، وبين غافل عن الآخرة مغرور، فجاهد نفسه في الله حتى أطاعته، وانسلخ من مقتضيات نقائصه كما ينسلخ الليل من النهار.

ثالثا: الصوفي غريب بين أهله

الصوفي صغرت – والله – الدنيا في عينه حتى كره المقام فيها بين أهله، لولا رحمته ببني جنسه ليدعوهم إلى الخير، واستوحش – والله – حتى من نفسه، وتمنى أن يكون نفسه الثانى في رمسه، شوقا إلى جوار حبيبه المختار، والأنس بالصفوة الأطهار، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، رجع بكليته إلى الماضي، مسارعا إلى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ من العقيدة والعبادة، والحال النبوية، والأخلاق الربانية، ومعاملتهم الله – تعالى – في خلقه، ورجع إلى الماضي من السنة السمحاء، والطريقة المستقيمة، فكان غريبا بين أهله، لجهلهم بالسنة، وتساهلهم بالملة، ولو ظهر بينهم رجل من الصحابة لأنكروا حاله، وجهلوا أعماله، ولكن الصوفي قوي في دين الله، ولا تأخذه لومة لائم في الله،

شهد الحق حقا فاتبعه مسارعاً، والباطل باطلا فاجتنبه فازعا، يغار لله، ولسنة رسول الله ﷺ.

رابعا: الصوفي اتحد بالحق مفارقا للخلق وهو فيهم.

الصوفي عمل بكتاب الله مجاهدا، وبسنة رسول الله ﷺ مشاهدا، فسبحت نفسه الطاهرة في ملكوت الله، بين صفوف ملائكة الله، فرفعه الله قدراً؛ لأن الصوفى مجاهد والملائكة غير مجاهدين، ينازع بالمجاهدة فطرته، والملائكة على الخير مفطورون. قال الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٩٥). لم تقف همة الصوفي على السياحة في ملكوت الله الأعلى بل فرت إلى لوامع وميض أنوار قدس العزة والجبروت، فألهت إلى الإشراف على القدس الأعلى، فجذبتها العناية الأزلية، واختطفتها يد الحسنى بالسابقية، فأشرف على قدس العزة والجبروت، فأشرقت عليه أنوار مشاهد التوحيد العلية، فاتحد بالحق مفارقا للخلق، وهو في الخلق محفوظ الظاهر والباطن، فألهمه الله – تعالى – نور البيان في فهم القرآن، ومنحه المنة بذوق السنة، فكان أمة وحده، جعل الله له نورا منه –سبحانه– حفظه به من دواعي الفطر، ولوازم الطبع، ومقتضيات رتبته من مراتب الوجود، وجعله نورا لأهل عصره، يجمل بأعماله الأشباح، وبعلومه الأرواح، ويجذب القلوب إلى علام الغيوب، ألقى الله عليه محبة منه فأحبه كل شيء، إلا شياطين الإنس والجن، الذين جعلهم الله قطاعا لطريقه.

الفصل الثاني

مدارس الصوفية لا خلاف بينها في كل زمان ومكان

الصوفية لا خلاف بينهم في كل زمان ومكان، وبدايتهم تزكية النفـــوس من أدرانها، وتطهير الأجسام من نجاساتها المعنوية، والاتصال بالمرشـــد الكامـــل الذي يتلقون عنه العقيدة الحقة، ويتشبهون به في الأعمال السنية، والأخـــلاق المرضية، والمعاملات المقربة إلى الله تعالى؛ لأن المرشد وارث رســـول الله ﴿ ﴾ ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه لم يورث درهما ولا دينـــاراً، ولا أطيانـــا وعقارا، ولكنه ﴿ ﴾ ورث نوراً وهدى، وحكمـــة وبيانـــا قـــال الله تعـــالى:

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٥١).

فهذه الخيرات هي ميراث سيدنا رسول الله ﴿ ﴾ التي ورثها الله بفضله من شاء من عباده.

الفصل الثالث

الصوفية هم أنصار الله ورسوله ﷺ

في كل زمان ومكان

الصوفية هم أنصار الله، وأنصار رسوله ﷺ في كل زمان ومكان سترهم الله عن أعين الجهلاء، وأخفاهم عن أهل الظلم والطغيان، ولكنهم هم النجدة عند الشدة، والقوة عند الضعف، والحصون عند الخوف.

ذلوا، ولانوا، وخشعوا، واختفوا، وتستروا، نعم. ولكنهم إذا غضبوا لله غضب الله لهم، وإذا دعاهم الحق لبوه، رخيصة دماؤهم عليهم حنينا إلى الموت في سبيله، والقتل في إعلاء كلمته، متى تحركوا لله لا يسكنوا حتى يظهر الحق، أو يتصلوا بدار الحق، كم لهم من صولة لله بالله، أزالوا بها باطلا تعسر زواله على الجيوش الجرارة، فهم الأنوار التي تسطع في حالك الظلمات فتمحوها، وقد أثبت التاريخ ما أظهره الله –تعالى– بهم، منهم آل بدر أنصار الله المهاجرون، استضعفوا في أوطانهم ففروا إلى الله تعالى، والفقراء من الأنصار الذين خرجوا ليقابلوا تجارا من الشام فقابلوا صناديد العرب وجمراتها، فكان كل رجل منهم كأنه جيش جرار.

غضبوا لله – تعالى – غضبة محت الكفر وأهله، وفي كل عصر وزمان قام فيه أهل الطغيان ليطفئوا نور الله بأفواههم، أشرقت أنوار الصوفية فمحت الظلمات، هم الذين نشروا تلك الأنوار في سائر الأقطار، بالقرآن والسنان، شوقا إلى لقاء ربهم، وحبا في إعلاء كلمة الحق.

الفصل الرابع

أهل الصُّفة هم مصدر بث الروح العالية

في كل الحوادث

وأهل الصفة – رضي الله عنه – هم الذين بثوا تلك الروح العالية في كل الحوادث..أقبل جيش الروم عندما قام الصحابة لفتح القسطنطينية، وكانوا – رضى الله– عنهم قليلين، وجيش الروم يناهز الستمائة ألف مقاتل، فهجم رجل من التابعين على قلب الجيش منفردا، فناداه آخر قائلا: ارجع فإن الله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥).

فصاح سيدنا أبو أيوب الأنصاري من كبار أئمة الصوفية قائلا: ويحك، لقد نزلت فينا، وأنا أعلم سبب نزولها، ليست التهلكة الإقدام على هذا الجيش، وإنما التهلكة الإحجام، فإن المؤمن إذا أقبل فاستشهد أحياه الله الحياة الحقة، وإذا أحجم هلك، ثم كبر – رضي الله عنه – وهجم على الجيش كله منفردا، فاخترق صفوفه، وأقبل المسلمون بعزيمة ماضية وراءه، فهزم الله جيش الروم، وكادت تفتح القسطنطينية، لولا موت أمير المؤمنين معاوية ورجوع أمير الجيش وقواده لهذا الحادث العظيم، فكان الصوفي في وقت الغيرة لله، يجعل من معه مشاهداً فردوس الله، ليس بينه وبينها إلا أن يطعن بسنان، أو يضرب بسيف، فهم – رضي الله عنهم– زهدوا في الدنيا، ورغبوا في الآخرة، ولكنهم عند المقتضيات يقومون لله، رغبة لإعلاء كلمته سبحانه، وهم الذين إذا أقدموا لم يحجموا،

يعملون ولا يقولون، كثرت أعمالهم وقلت أقوالهم، خافوا مقام ربهم، ونهوا النفس عن الهوى، لهم جانب مع الله -تعالى- إذا سألوه استجاب لهم، ولهم أعمال خالصة لذات -الله تعالى- إذا قاموا بها كان الله معهم ولهم.

الفصل الخامس

الصوفية حملوا راية الإسلام

إلى كل مكان بالمعرفة والسلوك

لم تقم دولة من دول الإسلام إلا وهم مؤسسوها، ولم تقم فتنة من أعـــداء المسلمين إلا وهم مطفئوها. أول الخلفاء بعد رســـول الله ﴿ﷺ﴾ إمـــامهم، ودام الأمر فيهم إلى سيدنا الحسن السبط -عليه السلام- ومدهم عمر الخلافة، حتى انتقلت إلى المُلك العضد، وهم الذين قلبوا دولة بني أمية، وأعادوا الدولة لبنى هاشـــم، وهم الذين أيدوا دولة آل عثمان، حتى شيدت المســـاجد في بودابســـت، وفي بلونيـــا، ولم يبـــق إلا أن تصـــير أوروبـــا إســـلامية كمـــا كـــان أولا.

ألا والتفت الصوفية إلى خلواهم وتجريدهم، عند ما رأوا أنه لا حاجة لهم لقوة سلطان المسلمين، وهم الذين ردوا الصليبيين عن الثغور الإســـلامية في زمـــان صلاح الدين الأيوبي، عند ما غار والله غيرة سلبت عقول الإفرنج، حتى أصبح الحليم سفيها، ولا غرابة! فإن درويشا لم يبلغ خدمة المرشدين، غـــار الله هـــو ودراويشه غيرة قهرت ملك الحبشة وجيوش الطليان، وجنود فرنسا، والجيش المصري، والإنجليزى، حتى مات منصورا ظافراً، وجيشه على أبـــواب مصـــر، ولكن غادرته المنية وقام بالأمر غير الدراويش، فاختلفت القلوب وتغيرت.

الفصل السادس

الصوفية أيقظوا الشرق من غفلته لكي ينال حريته

أولاً: الصوفية هم القائمون بواجب الوقت.

الصوفية هم المقبلون بكليتهم على الحق، الملتفتون عن جانب الغرور والفناء إلى اليقين الحق والبقاء، وهم الرجال الذين عرفوا قدر الدنيا والآخرة، وفروا إلى الله تعالى مع حفظ الأدب مع الله –تعالى– بالوقوف عند الأسباب التي وضعها الحق مرتبطة بعضها ببعض، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: (نِعْمَةُ ٱلدُّنْيَا مَطِيَّةُ ٱلْمُؤْمِنْ)[أورده الغزالي في الإحياء، وقال القارىء قلت معناه صحيح، ورواه الديلمى في الفردوس عن ابن عمر مرفوعاً وذكره الصنعانى، والعقيلى وابن لال عن طارق بن أشيم، والحاكم وصححه]. وفيها ينال الإنسان أرقى مراتب السعادة في الآخرة، وهي مهبط وحي الله، ودار رسل الله، ومحلة العمل لله، والمسارعة في محابه ومراضيه –سبحانه– قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٧٢). علموا مقدار الدنيا، وما ينال فيها من الرضوان الأكبر، والفضل العظيم، وحسن الثناء، فبذلوا النفس والنفائس فيما لا يحصل إلا في الدنيا، فهم رجال العمل للخير الحقيقى، قاموا بواجب الوقت ومقتضاه تلبية لداعي الحق شرعا وقدرا، فهم العاملون وإن ترك الناس، والقائمون إذا أهمل الناس، ولكنهم حكماء حلماء، جملهم الله تعالى بالأناة والحلم، وحب الاستخارة والمشورة، حتى يطمئن القلب بإخلاص العمل لله، فإذا حركتهم العناية للقيام بعمل هو خير في الحقيقة ونفس

الأمر أقبلوا بالكلية، محافظين على آداب السنة، غيرة لله سبحانه، فلهم في كل شأن من شئون الدنيا نظر سديد، وبحث بعيون الفكرة والروية، حتى يستنبطوا حكم الله في هذا الشأن. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩). وقال الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ (البقرة : ٢٥٧).

ثانيا: اتحاد الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة.

وقد آن أن يظهر سر تلك الشئون، وتلوح غيوب تلك الحوادث، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (آل عمران: ٢٦).

ومتى أراد الله شيئا هيأ أسبابه، وهو سبحانه مقلب القلوب، له –سبحانه وتعالى– شئون يبديها ولا يبتديها، يرفع قوما ويخفض آخرين. تنبه الشرق من غفلته، وقام من نومة جهالته بعد الثبات الطويل، فلم يبق قلب إلا وتقلب، ولا لسان إلا ونطق، ولا جسم إلا وتحرك من غير داع يدعو، ولا آلات وأدوات تشجع، حتى اتحدت الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة، على غرض واحد، فترى البرهمي والبنيالي والمسلم في جنوب آسيا ينادون بصوت واحد، طلبا لقصد واحد، والرفضي والشيعي والسني في بلاد الفرس يسارعون إلى مطلب واحد، والزيدي والسني في بلاد اليمن يطلبون مطلبا واحدا، والمسلم والقبطي في مصر يتنافسون في نيل غرض واحد، بل سرت تلك الروح فجددت نشوة لم تكن

منتظرة، وأحيت أشلاء رميمة، فلم يبق سوقة في حقير المهنة، ولا عالم في رفيع الرتبة، ولا بطرك فما دونه، ولا أمير إلا والكل قد جذبتهم تلك العناية الربانية إلى اليقظة لحقوق لم تكن تخطر على البال، ومطالب لم يتصورها الخيال.

ثالثا: واجب رجال التصوف.

والصوفية مقبلون بالكلية على الحق، يرون واجبهم المقدس في مثل تلك الحوادث الابتهال إلى الله – تعالى– أن يحفظ المجتمع من الفتن المضلة، وأن يدفع عن عبيده وعباده نتائج غضبه، من الهرج والمرج، والظلم والتظالم، حتى دعا واجب الوقت أن يكونوا عمالا لله – تعالى– قياما بمقتضى الوقت، والوقت يوجب علينا أن نحرص كل الحرص على العمل لرد ضالتنا المنشودة، حتى نكون كما خلقنا الله – تعالى – أحراراً أن متنعمين بنعمة الدين والدنيا والآخرة، فإن مسرات النفس بنيل الشرف والمجد فوق مسرات الجسم بنيل الشهوات والملاذ، ومسرات الروح بنيل رضوان الله الأكبر، والقيام له – سبحانه وتعالى – بما يحب يرضى، فوق مسرات النفس بالمجد والشرف، ولا سبيل إلى نيل خير الروح والنفس والجسم إلا التمتع بالحرية المطلقة، التي يكون بها الإنسان آمنا على دينه ودنياه وحياته، وإذا عشنا في تلك الدار الدنيا، لا حرية لنا، ولا رأي، يضيع الحق بيننا، فلا يمكننا أن نقوم به. تلك الحياة ليست حياة إنسانية، بل هي أشبه بحياة أسفل الأنواع؛ فإن الله –ﷻ– خلق الإنسان حرا مريدا، وكان قادرا، سبحانه أن يقهره بوضع أسباب تحيط به، فكيف يرضى الإنسان لنفسه أن يكون آلة صماء تحت إنسان نظيره، ولا بد لكل صوفي – لا أقول في بلاد مصر بل في كل أقطار الأرض – من أن يعلن أنه لا يرضى لأي إنسان مهما كانت

درجته دينا وعلما أن يرى إنسانا نظيره فوقه إلا بالحق، كما يرى الأبناء آباءهم الرحماء، وكما يرى التلاميذ معلميهم الأتقياء، وكما ترى الأمة ولاة الأمور الأبرار الأخيار، فيكون الحق ﷻ هو العلي الكبير، الحكم العدل، وتكون منزلة الإنسان للإنسان بقدر قيامه للحق بالحق، وقد آن لكل صوفي أن يعلن هذا الإعلان، رغبة في نيل رضوان الله تعالى، وحبا في الخير.

ولما كانت تلك الهمة وجداناً روحانيا كان القائم الداعي إليه داعيا إلى الحق كائناً من كان، وإني أدعو رجال الصوفية الذين هم أصدق قلوبا، وأخلص نية، وأسرع إقبالا على الحق، أن يتوجهوا إلى الله بقلوبهم؛ ليغيث العباد من هذا الفساد، وأن ينبهوا العامة والخاصة إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى، ليكون الله – تعالى– معنا، بخفى لطفه، وسريع إغاثته،وعجائب قدرته، فإنه قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة:١٨٦). وأن يرفعوا أصواتهم بعد الحلم والأناة، والاستخارة والمشورة، حتى ينظر الله تعالى إلى عباده بعين رحمته وحنانه، ويمدهم سبحانه بعطفه وفضله، وقوته وإحسانه، ويحسن أن يكون لكبار رجال الصوفية، ومشايخ البيوت، وحضرة شيخ المشايخ اجتماعات يرفعون فيها الأمر إلى الله تعالى، ويكثرون تلاوة الأدعية المأثورة، وينبهون على الدراويش أن يصوموا أياما لله، ويسهروا ليالى لله، ليتجلى الله سبحانه لعباده بما هو أهله من الكرم والإحسان، والعفو والعافية، والحفظ والسلامة.

وإني –والحمد لله– قد شرح الله صدري لأن أكون أول من يدعو إلى هذا

الخير، وألبى من دعاني إليه، والله أسأل أن يجعلنا من عماله المخلصين، ومن الذين يهمهم هم إخوانهم، وخصوصا في هذه الشؤون العظيمة، والحوادث الهائلة، حفظنا الله وإخوتنا من الفتن، والهرج والمرج، ومكن لنا في الأرض بالحق إنه مجيب الدعاء.

الفصل السابع

الصوفية هم رجال الرحمة والقوة

أولا: الصوفية نظروا إلى الدنيا بعين الاحتقار

والصوفية رجال نظروا إلى الدنيا بعين الاحتقار، فلم ينافسوا أهلها، ولكنهم اهتموا بتنبيههم إلى حكمة إيجادهم فيها، وإلى الواجب عليهم ليكونوا سعداء في الدنيا والآخرة، وأقبلوا بالكلية على تزكية نفوسهم، وتحصيل العلم النافع الموصل إلى نيل الخير الحقيقي.

ثانيا: الصوفية أشد الناس تأثرا بالحوادث

وهم مع استغراق أنفاسهم في نيل هذا الخير المنشود للنفوس الطاهرة أشد الناس تأثرا بالحوادث، لما جملهم الله به من الرحمة، فهم يعيبون على الإنسان - مهما كان دينه - إذا أخذ سيفه وخرج ليلا يسلب مال غيره، وهو إنما يؤذى فرداً واحداً، فكيف بهم إذا رأوا مجتمعاً سلب الله الرحمة من قلوبهم، فأعدوا آلات الفناء، من مقذوفات النيران التي تغوص في البحار، وتطير في الهواء، وتمر على الأرض مر السحاب لحصد نبات الله على الأرض، ومحو النوع الإنسانى الذي خلقه الله تعالى بيديه، وسخر له كل شيء، إذا رأى الصوفي هذا العمل، وهو الذى يفر من العمران إلى القفار، خوفا من رؤية ظلمة الفرد للفرد، كيف يكون حاله إذا رأى مجتمعا انفلتت حقائقه الإنسانية إلى الحقائق الوحشية الشيطانية، والوحش يأكل اللحم فيأكل الإنسان ليتغذى به، وهذا المجتمع يمزق

أجسام المجتمعات بشواظ النيران، لينال شهوة بهيمية.

ثالثا: الصوفية رجال الرحمة.

الصوفية رجال الرحمة الذين يشفقون على الشجرة أن يقطعـوا غصـنا منها وهي لا تحس، فإذا رأوا تلك السباع الكاسرة، والوحوش النافرة عـدت على الأطفال والرجال العزل، فأصلتهم نارا حامية، ماذا يكون حالهم؟ أيهملون في واجبهم حتى يعم غضب الله البر والبحر؟ أم يرون النيران تحصد في إخوانهم ولا يشعرون بآلامها فيتعرضوا لغضب الله تعـالى؟ لا. ولكنـهم يقومـون لله ولرسوله، رحمة بالمظلومين، وبغضا للظالمين، ومسارعة إلى نيـل رضـوان رب العالمين، فإذا تحركت تلك القلوب كان معها علام الغيوب.

أي قلب يعلم ظلم الإنجليز للمسلمين في فلسطين ومساعدتهم لليهـود، وظلم الإنجليز للهند ومصر وسودانها، وغيرها من البلاد الإسلامية، وظلم فرنسا لتونس والجزائر وغيرها من البلاد الإسلامية، وظلم إيطاليا لطرابلس الغـرب وإرتريتريا والحبشة وغيرها من البلاد الإسلامية، وانتشار ظلم دول أوربا على الشرق وأهله، أى حيوان حي يدرك تلك الفظائع ولا يرق قلبه؟ ولد الشـرق رجالا أيقظتهم الشدائد، وخير الرجال من أيقظتهم الشدائد.

رابعا: واجب الصوفية.

تنبيه أهل الظلم بعاقبة الأمر، وموعظة من أعانهم من المسلمين.

الفصل الثامن

الصوفية هم صفوة الله الذين اجتباهم من الأزل

علمت مبدأ الصوفية وقصودهم، وتحقق أيها الأخ – أمدني الله وإياك بروح منه – أن الصوفية رضى الله عنهم جعل الله لهم نورا، استبان لهم به حقيقة الدنيا والآخرة، وحقيقة أنفسهم، وحكمة إيجاد الإنسان، وإمداده، وتسخير الكائنات له، فسارعوا إلى ما به من نيل ما أعده الله للإنسان في تلك الدار الدنيا، من البهجة بالعلم، والأنس بالشهود، والعمل بمحابه ومراضيه سبحانه، وفي الآخرة من جوار أنبيائه الأطهار، وأوليائه الأخيار، وفي مسرات فردوسه الأعلى، نظروا بعيون قلوبهم، إلى أنواع مراتب الوجود، فظهر لهم أن الإنسان وسط بين عالم الملك والملكوت، فهو حيوان ملكوتى، مطالب بشكر النعمة للمنعم، مكلف أن يبحث بما وهبه الله سبحانه من العقل والفكر في نفسه، وفيما أحاط به، ليلحظ بسره أنوار الآيات في نفسه وفي الآفاق، ليعبد الله بجسمه وبروحه. الصوفية هم صفوة الله تعالى، الذين اجتباهم الله من الأزل فوقه وأعانهم، وشرح لمحابه ومراضيه صدورهم؛ لأن بدايتهم المجاهدة في الطلب، فلو أنك ذقت حلاوة سر تلك المجاهدة علمت مقدار عناية الله بهم، لأنهم لأي شيء يجاهدون؟ ومن يجاهدون ؟ وفيمن يجاهدون؟.

أَهْلُ ٱلصَّفَا فَرُّوا مِنَ ٱلْأَكْوَانِ ... لِلْمُنْعِمِ ٱلْوَهَّابِ وَٱلرَّحْمَٰنِ
لِلَّهِ قَدْ فَرُّوا بِصِدْقِ عَزِيمَةٍ ... مِنْ عَالَمِ ٱلْمَلَكُوتِ بَلْ وَجِنَانِ
لَمْ يُلْهِهِمْ كَوْنُ ٱلْفَسَادِ لِأَنَّهُمْ ... قَدْ سَارَعُوا لِلرَّوْحِ وَ ٱلرَّيْحَانِ
أُنْسُ ٱلرِّجَالِ بِرَبِّهِمْ وَبِحُبِّهِ ... فَازُوا بِنَيْلِ وِصَالِهِ ٱلرَّبَّانِي

أَهْلُ ٱلصَّفَا شَهِدُوا ٱلْجَمِيلَ بِلاَ خَفًـا ... هَامُوا بِـهِ فِـي حُظْـوَةِ ٱلرِّضْـوَانِ
قَدْ لاَحَ وَجْـهُ حَبِيـبِهِمْ لِقُلُـوبِهِمْ ... نَالُوا ٱلصَّـفَا بِٱلْفَضْـلِ وَٱلإِحْسَـانِ

أَهْلُ ٱلصَّفَا شَهِدُوا ٱلْجَمَـالَ عِيَانَـا ... فَقِهُـــــوا ٱلْعُلُومَ وَرَتَّلُوا قُرْآنَـا
فَرُّوا مِنَ ٱلأَكْوَانِ حُبًّا فِـي ٱلرِّضَـا ... شَهِــــدُوا جَمَـالَ ٱللهِ لاَحَ بَيَانَـا
أَوْلاَهُمُــــو ٱلرَّحمٰنُ فِقْهَ كِتَابِـهِ ... أَعْطَــــاهُمُو ٱلإِقْـبَالَ وَالإِيـمَانَا
لَمْ يُلْهِهِـــمْ كَوْنُ ٱلْفَسَادِ لأَنَّهُـمْ ... نَالُوا رِضَـــاءَ ٱللهِ مِنْـهُ حَـنَانَا

الباب الثاني

في علوم الصوفية وأحوالهم

الفصل الأول: تعريف علم التصوف

التصوف عطر للنفس يزكيها، وشعاع للروح يلطفها، ونفحات للحس يرهفه، وومضات للعقل يضيئه ويهديه، وهو الغذاء الروحى لكل نفس، والقبس الإلهي المضيء لكل قلب، والخصيصة الإنسانية التي استجابت لآدم وتاب من معصيته فتاب الله عليه. جاءت رسالات الله إلى الخلق بمنهاجه وانجلت عمايات النفوس بنوره، ورسمت المثل العليا بنبضات أنفاسه، وخطوات رجاله.

والتصوف عطر النفس الزكية، وشعاع الروح العلوى.. يشرق على الحس فيزكيه. وعلى العقل فيضيئه، وإلى الشهوة فيهذبها.. هو الروح للنفس، والقبس الإلهى للقلب، والخصيصة التي يمتاز بها الإنسان عن بقية العوالم، وما أسعد الإنسانية إذا أشرقت الأرض بنور ربها وتنسمت النفس عبير طيب التصوف العبق، وشربت من راح المعرفة الإلهية الطهور.

والتصوف علم إذا سلكت طريقه أماتك الحق عنك، وأحياك به، وهو ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع. والصوفي دائم التصفية، يصفي الأوقات من شوب الأكدار، بتصفية القلب من شوب النفس، والصوفي مع الحق بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (المائدة: ٨). وهذه القوامة لله على النفس هي التحقق بالتعرف.

هُوَ ٱلْعِلْمُ بِٱلْمَعْلُومِ يُـذْكِي غَرَامِيَـا وَيُجْلِي لِرُوحِي ٱلْوَجْهَ جَهْـرًا أَمَامِيَـا

هُوَ ٱلْعِلْمُ قَصْدٌ وَهْـوَ ثَـمَّ وَسِـيلَتِي لِنَيْلِ ٱلرِّضَـا حَتَّـىٰ أَنَـالَ مَرَامِيَـا

وَلَـمْ أَتَعَلَّـمْ كَـيْ أَنَـالَ وَجَاهَـةً تَـزُولُ وَتُبْقِـي عَارَهَـا وَعَـذَابِيَا

هُوَ ٱلْعِلْمُ يَجْذِبُنِي إِلَى ٱللَّـهِ خَـالِقِي هُوَ ٱلْعِلْـمُ لِلْحَـقِّ ٱلْـيَقِينِ دَعَانِيَـا

بِهِ رِفْعَتِي أَرْقَىٰ عَنِ ٱلْعِلْـمِ حَاضِـرًا فَنَاءً عَنِ ٱلْأَغْيَـارِ نِلْـتُ ٱلْمَرَاضِـيَا

أُشَـاهِدُ مَعْلُـومِي بِعِلْمِـيَ عَـامِلاً بِهِ فَانِيًـا عَنِّـي شَـهِدْتُ ٱلْمَعَانِيَـا

فَلَمْ يَحْجُبَنِّي ٱلْعِلْمُ عَنْ سِـرِّ طِلْبَتِـي لِأَنَّ جَمَالَ ٱلْحَقِّ قَـدْ صَـارَ بَادِيَـا

هُوَ ٱلْعِلْـمُ قَرَّبَنِـي لِرَبِّـي خَشْـيَةً فَصِـرْتُ بِـهِ بِٱللّـهِ لِلَّـهِ دَاعِيَـا

لِرُوحِيَ مَعْلُومِي تَرَاءَىٰ فَصَـحَّ لِـي فَنَائِيَ عَنِّي صَارَ لِـي ٱلْعِلْـمُ هَادِيَـا

هُوَ ٱلْعِلْمُ يُجْلِي لِـي مَعَـانِيَ قُدْسِـهِ بِغَيْرِ مِسَاسِ ٱلنَّـارِ أُسْـقَىٰ مُـدَامِيَا

يُعَلِّمُنِـي ٱلـرَّحْمَٰنُ مَعْنَـىٰ كَلَامِـهِ فَأَفْقَهُـهُ وَقَـدْ مُنِحْـتُ ٱلْأَيَادِيَـا

هُوَ ٱلْعِلْمُ جَذَّابُ ٱلْقُلُوبِ إِلَى ٱلْهُـدَىٰ عَلَيْكَ بِهِ تُعْطَـىٰ ٱلرِّضَـا وَٱلْمَعَالِيَـا

فَفِي كُلِّ ذَرَّاتِ ٱلْوُجُـودِ عَـوَارِفٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلْغَيْبِ ٱلَّذِي كَـانَ خَافِيَـا

تُسَـبِّحُ ذَرَّاتُ ٱلْوُجُـودِ بِحَمْـدِهِ وَبِٱلْعِلْمِ تَسْـمَعُهَا إِذَا كُنْـتَ تَالِيَـا

هُوَ ٱلْعِلْمُ حِصْنُ ٱلْأَمْنِ نُورٌ بِهِ ٱلصَّـفَا بِهِ تَشْهَدُ ٱلْإِحْسَـانَ فَضْـلاً مُوَالِيَـا

هُوَ ٱلْعِلْمُ عِلْمُ ٱللَّهِ يُعْطِيهِ مَـنْ يَشَـا يُحِيطُ بِهِ مَنْ شَاءَ يُعْطَـى ٱلْمَرَاضِـيَا

وَلَوْلَاهُ لَمْ تَزْكُو نُفُـوسٌ وَلَـمْ تَنَـلْ رِضَا ٱللَّهِ فِي ٱلْأُخْرَىٰ نَرَى ٱللَّهَ وَالِيَـا

وَلَـيْسَ بِكَسْـبٍ أَوْ عَنَـاءٍ وَإِنَّمَـا تَنَـالُ بِفَضْـلِ ٱللَّـهِ جَـلَّ مُوَافِيَـا

هُوَ ٱلْعِلْمُ نُورُ ٱللَّـهِ يُعْطَـىٰ بِفَضْـلِهِ تَعَرَّضْ لَهُ تُعْطَـىٰ ٱلْمُنَـىٰ وَٱلْأَمَانِيَـا

الفصل الثاني: الطريقة والشريعة

سبق لي في غير هذا الموضوع أني بينت أن مدلول(شريعة وطريقة ومنهاج وصراط وسبيل) واحد، وكلها ألفاظ مترادفة، دالة على المسافة التي يلزم العبد أن يتجاوزها من الدنيا إلى الآخرة، ومن الآخرة إلى المكون سبحانه وتعالى، وهي المسافة التي لا نجاة للعبد إلا بتجاوزها على الصراط المستقيم. وتلك المسافة شاسعة،طويلة الشقة، صعبة المشقة، إلا على من يسر الله لهم السلوك، وسهل عليهم مراحلها، وأنعم عليهم بالمرشد الكامل، الذي يبين لهم سبل الله، ويوضح لهم حكم أحكام الله، ويشرح لهم خفي أيام الله، ويشهدهم في أنفسهم وفي الآفاق آيات الله، ويعالج أمراض نفوسهم، وأسقام قلوبهم، بما أمر الله به، من قوله سبحانه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (النحل :١٢٥). فالحكمة لأهل الاستعداد الذين سبقت لهم الحسنى، وحصلت منهم الرغبة في الحق، والشوق إلى ما عنده سبحانه، وهي بيان أسراره، وكشف غوامض آياته، وشرح مكنون حكمه –سبحانه وتعالى– والموعظة للمؤهل الذي سبقت له الحسنى، ولكنه ملتفت ببصره إلى غير من يجب أن يواجهه، والموعظة هي التنبيه إلى ما يجب على العبد، وهي الذكرى، لأن من شهد شيئا وتصوره، والتفت عنه، يذكره، ولذلك فإن الله تعالى قال: ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ ولم يقل الحكمة الحسنى، لأن الحكمة حسنة، والموعظة تذكير من شهد مشهدا وشغله غيره ليلتفت إلى مشهده الأول، وأما المجادلة: فهي لمن لم يكن فيه أهلية ولا استعداد، فتقام عليه الحجة بالتي هي أحسن، حتى لا يحصل له النفور، وأشار الله تعالى بقوله: ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ لتكون

الحجة قائمة عليه، فإن وفقه الله –تعالى– أقبل مطمئنا وإن لم يقدر لـــه توفيقـــه أدبر، وقد قامت عليه حجة الله تعالى – قال تعـــالى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ ﴾ (الأنعام:١٤٩). فمن أسعده الله – تعالى - بمرشد عالم بطريق الوصول، ورزقه الله التسليم له، كان ذلك أكبر دليل على سعادته في الدنيا والآخرة. ولما كانت تلك الألفاظ كلها مترادفة، كان قولنا شريعة وطريقة، بمعنى واحـــد. ولكـــن اصطلح السلف الصالح على أن يضعوا لفظ طريقة علما على تلاميذهم، الذين تفرغوا لتلقي العلوم، وللعمل بها، وأقلبوا بكليتهم علـــى مجاهـــدة أنفســـهم، ليتجاوزوا تلك المسافات الشاسعة ولما كان لابد من أخذ العهد على عبـــاد الله لله، وقد أخذ الله العهد على رسله الكرام بواسطة ملائكته، وأخذ العهد علـــى رسوله ﴿ ﴾ مباشرة، وأخذ الرسل العهد على أممهم لله، ولما كان سيدنا ومولانا رسول الله ﴿ ﴾ خاتم الأنبياء، قام العلماء الربانيون في كل زمان، بالنيابة عـــن جنابه المحمدي ﴿ ﴾ لأخذ العهود من أهل زمانهم لله سبحانه وتعالى مبينين لهـــم سبل الله، موضحين لهم سنن رسول الله ﴿ ﴾ مصدقين القول في العهد بالحال، فإن الحال يصدق المقال – لذلك صار لفظ الطريق علماً على طائفة مخصوصة، هم تلاميذ العلماء الربانيين، الذين يتلقون عنهم أسرارهم ويتشـــبهون بهـــم في أقوالهم وأعمالهم، وأخلاقهم، وأحوالهم، ويسارعون في العمل بما يعلمونه منهم – ومن انتسب إلى الطريق ولم يكن مسترشداً على يد مرشد، عالم ربانى، عامل بكتاب الله، وسنة رسوله ﴿ ﴾، فليس من أهل الطريق، ولكنه دَعِيٌّ.

فالطريق إذن: عمل بالعزائم في الشريعة المطهـــرة، لأن الشـــريعة تجمـــع الرخص والعزائم، ولفظ الطريق صار خاصاً بأهل العزائم، وهذا شيء معلـــوم من عهد رسول الله ﴿ ﴾. فإن كثيراً من أصحابه ﴿ ﴾ عكفوا في مسجده ﴿ ﴾

آخذين بالعزائم، متفرغين لتلقي الأسرار المحمدية، والأنوار القرآنية، وبهم رضي الله تبارك وتعالى عنهم اقتدى الخلف بعد السلف، فهم أئمة أهل الطريق وقادهم. ودام الأمر على هذا حتى كان الرجل إذا رغب فيما عند الله، خرج سائحاً على وجهه، يفتش عن المرشد، فلا يقر قراره إلا بعد أن يصل إليه، فإذا وصل إليه عكف عليه. ومن أحب أن يعلم سيرهم فليقرأ تراجمهم ﷺ فإنهم هجروا الأوطان، وفارقوا الأهل والأولاد، سعياً في طلب الرجل الدال على الله، بقوله وعمله وحاله، ولا يخلو زمان من الرجال المجددين لسنة رسول الله ﴿ ﴾ القائمين بحجة الله. ولا خلاف بين الشريعة والطريقة؛ لأن أهل الطريق اهتموا بعمل القلوب، لأن أساس الخير كله عمل القلوب، ولعلك تعلم أن النفاق قد يخفى على كثير من العلماء؛ فقد يكون الرجل منافقاً، وهو يحسب نفسه من أكمل الموقنين، وذلك من عدم عنايته بعمل القلوب، واهتمامه بظاهره. وجلي أن القلب محل نظر الرب –سبحانه– ولذلك سارع رجال الطريق إلى صفاء قلوبهم، وتخليتها من النجاسات، لتخلص لهم الإرادة، ويكمل لهم القصد، وتصح العزيمة، حتى يبلغوا درجة فقه القلب، وكم من فقيه اللسان جهول القلب، وكم من فقيه القلب جهول اللسان، وإنما هي مراقبة الله ﷻ بالقلوب، تكسبها خشية، وخوفاً ورهبة، وحباً وثقة به –ﷻ– وصبراً على مر قضائه وقدره، أو رضى عنه في كل شئونه سبحانه.

لعلك تسألني قائلاً: إنك تقول لا خلاف بين الشريعة والطريقة. مع أنا نرى الخلاف بين كثير من الناس، فترى أهل الطريق ينكرون على غيرهم، وغير أهل الطريق ينكرون على أهل الطريق إنكاراً مراً، حتى يرموهم بالبدعة والضلالة، والخروج عن الشرع؟.

فأقول لك يا أخي: لا يلزم من حصول الإنكار وجود ما ينكر عليه، أو الاختلاف بين الشريعة والطريقة، ولكن ما تراه من الخلاف بين الناس في مثل هذا، فهو للجهل بأصول الطريق ومآخذها، أما الإنكار من أهل الطريق على غيرهم، فلم يكن ذلك من علمائهم، ولكنه من بعض من يؤذيهم إنكار المنكرين، وإن كان ثم إنكار، فهو على الشخص المنسوب للطريق، الذي يخالف أحكام الشريعة، مدعياً أن ذلك من الطريق، وهو كاذب، لأن الطريق هو روح الشريعة، والأخذ بعزائمها..

وليس من أهل الطريق من خالف صريح السنة، ولجهل الناس صاروا ينكرون على الطريق إذا شهدوا رجلاً من أهلها يعمل ما يخالف الشريعة، وكذلك إنكار أهل الطريق على العلماء، لأنهم رأوا من يدعي العلم يعمل بغير علمه، فالإنكار على عمل الأشخاص لا على الطريق، والطريقة منهاج المخلصين. والحقيقة أن الشريعة اسم جامع للعزائم والرخص، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٤). وقال سبحانه: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ (الشورى: ٤٠). فمن اعتدى على من اعتدى عليه عمل بالشريعة، ومن عفا وأصلح عمل بالشريعة، ولكن من عفا وأصلح تميز عن غيره؛ لأخذه بالعزائم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثالث: الشريعة والحقيقة

لا خلاف بين الشريعة والحقيقة، فإن الشريعة حقيقة، والحقيقة شريعة، فالشريعة في الاصطلاح: أمر بالقيام بواجب العبودية، والحقيقة شهود معاني الربوبية. ولا يكون المسلم مسلماً كاملاً إلا إذا وفقه الله، فالتزم العبودية، وتفضل الله عليه فأشهده معاني الربوبية فشاهد في الشريعة أسرار حكيم، وفي الحقيقة أنوار قادر، ومن أحاط بالشريعة علماً، والتزم العبودية، ولم يشاهد معاني صفات الربوبية، فغير مقبول، وكل من شاهد معاني صفات الربوبية ولم يتقيد بالشريعة لم يفز بمحصول.

سَبِيلُ ٱلتَّحَقُّقِ مَسْلَكُ ٱلأَرْوَاحِ هُوَ ٱلْغَيْبُ مَحْظُورٌ عَلَى ٱلأَشْبَاحِ
مَنَارُ مَعَالِمِهِ خَفِيٌّ عَنِ ٱلنُّهَىٰ وَأَسْرَارُهُ لَمْ تُبْدَ بِٱلإِفْصَاحِ
نَعَمْ هِيَ سُبْلُ ٱللَّهِ يَهْدِي بِنُورِهِ أُولِي ٱلْقُرْبِ وَٱلإِخْلاَصِ سُبْلَ فَلاَحِ
وَمَنْ جَاهَدُوا فِي ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَجْهَهُ يُنَاوِلُهُمُو ٱلْوَهَّابُ صِرْفَ ٱلرَّاحِ
يُرِيهُمْ مِنَ ٱلْمَلَكُوتِ آيَ جَمَالِهِ وَأَسْرَارَ غَيْبٍ بِٱلضِّيَا ٱلْوَضَّاحِ
بِهَا يَعْرِفُ ٱلإِنْسَانُ رُتْبَتَهُ ٱلَّتِي بِهَا يَحْظَ بِٱلْبُشْرَىٰ وَنَيْلِ سَمَاحِ
وَيَعْرِفُ مَوْلاَهُ ٱلْعَلِيَّ تَنَزَّهَتْ مَكَانَتُهُ عَنْ حَيْطَةِ ٱلأَرْوَاحِ
يُجَمَّلُ بِٱلتَّحْقِيقِ بَعْدَ تَمَكُّنٍ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِٱلأَحْكَامِ وَٱلإِصْلاَحِ
وَتَحْقِيقُهُ بِٱلْعَجْزِ وَٱلْعَجْزُ عِلْمُهُ وَعَجْزِي عَنِ ٱلإِدْرَاكِ كُلُّ نَجَاحِي
وَأَمَّا سَبِيلُ ٱلْعِلْمِ بِٱلْحُكْمِ ظَاهِرًا بِكَسْبٍ وَتَعْلِيمٍ فَلِلأَشْبَاحِ
وَشَتَّانَ بَيْنَهُمَا فَهَٰذَا مُدَامَةٌ وَذَاكَ عَلَى ٱلإِجْمَالِ كَٱلأَقْدَاحِ
سَبِيلاَنِ فَٱلْعِلْمُ ٱللَّدُنِّي إِفَاضَةٌ مِنَ ٱلْمُنْعِمِ ٱلْوَهَّابِ وَٱلْفَتَّاحِ
وَذَاكَ بِتَوْفِيقٍ مِنَ ٱللَّهِ سَابِقٍ وَمِنْكَ مُجَاهَدَةً ....

الفصل الرابع: السالك والسلوك

الرجل السالك حقيقة من ذاق حلاوة الإيمان، بسر أضاء بـــالعلم الحـــق، وتحقق باليقين الكامل، وظاهر فظهر بعلوم الشريعة، عاملاً بما علم، حتى تكون أخلاقه كاملة، بمعنى أنه يتحقق بأن كل إنسان سواه مجمل بجمال الأخلاق، وأنه محتاج بأن يتخلق بما عليه غيره، من حسن الأخلاق، وصحيح الأعمال، وذلك لأنه لا يجالس إلا أهل الخير، ولا يعاشر إلا أهل الصلاح والعلم، لأن الســـالك من سلك طريق الخير، لحبهم له، وحبه لهم، وميله إلى اتباع مناهجهم، فهـــو لا يهوى إلا أهل التقوى، التي تزكت نفوسهم، والأبدان التي تخلت عـــن خبـــث الصفات، وقبيح الأعمال، وتحلت باتباع الشرع، والعمل بما يقتضيه كتاب الله، وسنة رسوله ﴿ﷺ﴾ ويتباعد عن مجالس اللهو والفسوق، وأهل الغرور بـــالله – تعالى– الجاهلين المستدرجين، فهذا السالك لا يقع نظرة إلا على نقي مقرب، أو زاهد عابد، أو فقير مبتلى، فيكون ساخطاً على نفسه وتقصيره، شاكراً ربه على نعمه ونواله، لا يزداد في كل نفس إلا قرباً إلى الله تعالى، وشوقاً إليـــه، وذمـــاً لنفسه، وتخلية لها، وطهارة لأخلاقه، وتجملاً بكمالها، فلا يرى على البسيطة أقبح عملاً منه، ولا أجهل منه، ولا أحوج منه، وبذلك يحبه الله، ويجملـــه بأخلاقـــه الربانية، ويحليه بنور عيون الشرع الشريف، فيحبه الناس أهل الخير، ويألفونه، فلا يزداد من الله إلا قربا، ومن الناس إلا حباً، يتباعد عن الدنيا فتطلبه، ويجد في القربات فيجعله الله متيسر الأمر، منشرح الصدر، تتوالى عليه البشائر، وتوافيه الخيرات والبركات، وهو ذلك المشغول بربه، الخائف منه، الراغب فيه، فـــإذا أحبه الخلق، وتوالت عليه النعم، وجب عليه الفرار إلى الله من الركون إلى تلك

الآثار، التي ربما شغلته، فجعلته يعرض وينأى بجانبه، وهي نقطة المحنة، ومكانة الفتنة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٨٣). وهذا سببه أنه لم يخرج من إنسانيته، ولم يتطهر من بشريته، والأحرى بمن هذا شأنه، الفرار من الخلق، والتباعد عنهم، حفظاً على نفسه من القطيعة، أما السالك الصادق، فهو ذلك العبد، وإن متع بكلمة كن لا تحجبه الآلاء عن عظمة المنعم، ولا تشغله الآثار عن خوف مقام المؤثر، ولديها يرث الأحوال النبوية، ويتناول من كوثر التحقيق شراباً طهوراً، يتلقى به من ربه –سبحانه وتعالى– أسرار المعرفة، وآيات القربات، وعيون حقائق الأعمال والمعاملات، وبذلك يصلح أن يكون رجلاً من أفراد الرجل، المخصوصين بخلوته وجلوته، وقد يتحقق الرجل بكل تلك المقامات بسابقية الحسنى، فتفاض عليه حلل الإقبال والقبول، فضلاً من الله ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ (يونس: ٥٨). وهم أهل العناية، المطلوبون للحق بالحق، انظر إلى الصديق الأكبر، وإلى باب الفتوة لسان النبوة ،حيدرة، وإلى سلمان الفارسي، وبلال، وأمثالهم – عليهم السلام – كيف اختطفتهم العناية ففازوا بالخصوصية المحمدية، بباعث نفساني، بدون سابق جدل أو معارضة أو بحث ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ ﴾ (الجمعة: ٤). وهكذا في كل زمان، أفراد جذبتهم العناية، فكانوا نجوم الدين، وشموس السنة، وبدور الشرع، بهم ينظر الله – تعالى – إلى عباده، وبهم يسبغ رحمته، وبهم يترل الغيث ويمهل الظالمين ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ ﴾ (الأنفال: ٣٣). ورسول الله ﴿ ﴾ في هؤلاء الأفراد حالاً وقولاً، وعملاً بحقيقة الرسالة للوراثة المخصوصة و﴿ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ﴾ (الحجرات:

٧). إذا تحقق عبد الذات بهذا المقام، كان فرد الحق المخصوص بأنه بأعينه، لنيابته عن السيد الأكمل ﴿﴾.

أَهْلُ ٱلسُّلُوكِ عَلَى ٱلصِّرَاطِ تَفَرَّدُوا بِٱلِاتِّبَاعِ لِهَدْيِ طَٰهَ أُيِّدُوا
فَرُّوا إِلَى ٱللَّهِ ٱلْعَلِيِّ بِهِمَّةٍ مِنْهُ بِهِ فِي سَيْرِهِمْ قَدْ سَدَّدُوا
غَابُوا عَنِ ٱلْكَوْنَيْنِ شَوْقًا لِلِّقَا وَبِسَابِقِ ٱلْحُسْنَىٰ لَهُمْ مِنْهُ هُدُوا

الفصل الخامس: سيرة العالم الرباني

العالم عزيز على الباطل، ذليل للحق، كاظم للغيظ عمن آذاه، شديد البغض لمن عصى مولاه، يجيب السفيه بالصمت عنه، والعالم بالقبول منه، لا مداهن، ولا مشاحن، ولا طعان، ولا لعان، ولا مغتاب، ولا سفيه، ولا جاف، ولا فظ، ولا غليظ، ولا سباب، يخالط من الإخوان المعوان على طاعة الله، ومن ينهاه عما يكره مولاه، ويخالق بالجميل من لا يأمن شره إبقاء على دينه، سليم القلب للعباد من الغل والحسد، يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين فيما أمكن فيه العذر، لا يحب زوال النعم عن أحد من العباد، يداري جهل من عامله برفق، إذا تعجب من جهل غيره ذكر أن جهله أكثر فيما بينه وبين ربه عز وجل، لا يتوقع له بائقة، ولا يخاف منه غائلة، الناس منه في راحة، ونفسه منه في جهد، ومن كانت صفاته وأخلاقه وسيرته، جعله الله وارث علم الأولياء، وقرة عين الأتقياء، وطبيباً لقلوب أهل الحياء.

العالم من يأمن شره من خالطه، ويأمل خيره من صاحبه، لا يؤاخذ بالعثرات ولا يشيع السوء عن غيره، ولا يسيء الظن بمن حوله، ولا يقطع بالإشاعات والمفتريات، يعفو ويصفح عمن عاداه، فلا يفشي سره، ولا ينتصر منه ولا ينتقم.

العالم من يكون لله شاكرًا، وله ذاكرًا.. دائم الذكر لحلاوة حب المذكور ﷻ، منعم القلب بمناجاة الرحمن، يعد نفسه مع شدة اجتهاده مخطئاً مذنباً، ومع الدءوب على أحسن الأعمال مقصراً.. لجأ إلى الله فقوى ظهره، ووثق بالله فلم يخف غيره، استغنى بالله عن كل شيء، وافتقر إليه –سبحانه– في كل شيء.. أنسه بالله وحده، ووحشته ممن يشغله عن ربه.. إن ازداد علماً خاف توكيد

الحجة، وأشفق على ما مضى من صالح عمله ألا يقبل منه، همه في تلاوة كـــلام الله الفهم عن مولاه، وفي سنن رسول الله ﴿ ﴾ الفقه لئلا يضيع ما أمـــر بـــه.. متأدب بالقرآن والسنة.. لا ينافس أهل الدنيا في عزها، ولا يجزع من ذلهـــا.. يمشي على الأرض هوناً بالسكينة والوقار، وقلبه مشتغل بالفهم والعـــبرة.. لا يفرغ قلبه عن ذكر الله أبداً، وإن فرغ فمصيبته عظيمة، وإن أطـــاع الله بغـــير حضور قلب فهو عنده الخسران المبين.. يذكر الله مع الذاكرين، ويعتبر بلسان الغافلين.. عالم بداء نفسه، ومتهم لها في كل حال، اتسع في العلوم فتراكمـــت عليه الفهوم، واستحيى من الحي القيوم، شغله بالله في جميع أحواله متصل، وعن غيره منفصل.

ومن أوتي من العلم ما لا يبكيه فخليق ألا يكون أوتي علماً ينفعه، لأن الله عز وجل – نعت العلماء، فقال تعالى: (الإسر﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ الإســـراء: ١٠٧-١٠٩). وهكذا وصف الله العلماء بالبكاء والخشية والطاعة والتـــذلل فيما بينهم وبينه.

والعالم نجاة العالم، فإذا نزع الله الرحمة من قلبه نزع معها النفـــع بـــالعلم، وصار العلم من النقم بعد أن كان أعظم النعم، وقد كان إبلـــيس مـــن كبـــار العلماء فأهلكه علمه، قال سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: "تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه، ليتواضع لكم من تعلمونـــه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم جهلكم". قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ

ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ (الروم: ٧). فمن ادعى العلم ولم يتواضع فهو عالم بعلوم إبليس، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ (الجاثية: ٢٣). أعوذ بالله من علم هو عين الجهل، بل يكون الجهل أقرب إلى الخير منه؛ لأن الجاهل يسعى ليتعلم، ولكن الآخر قد ملكه الغرور، فباعد بينه وبين التواضع.

لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تعطوها غير أهلها فتظلموها.

إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعرفه إلا العلماء بالله، فإذا ذكروه أنكره أهل الغرة بالله. ومن أباح لطائفة من المسلمين علما ليسوا له أهلاً، فقد أخطأ آداب العلماء.

سكينة العالم دليل على تمكنه، وبرهان على الرسوخ في العلم، بخلاف الانزعاج والرعونة وعدم التروي، فإنها دلائل على عدم البيان والتحقيق. والرحمة من أخص صفات العلماء، لأن العالم وارث سيدنا ومولانا ﴿ ﴾. وأجمل صفات سيدنا محمد ﴿ ﴾ ما أثبتها الله تعالى له ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (التوبة: ١٢٨).

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ (القلم: ٤). ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

فإن قيل: من العالم؟ فيقال: هو المتصور للشيء على حقيقته.. فإن قيل: ما العلم؟ فيقال: هو صورة المعلوم في نفس العالم.. فإن قيل: ما الحي؟ فيقال: المتحرك بذاته.. فإن قيل: من القادر؟ فيقال: هو الذي لا يتعذر عليه الفعل متى شاء.. فإن قيل: ما الفعل؟ فيقال: أثر من مؤثر في مؤثر فيه.. فإن قيل: ما معنى

الباري تعالى؟ فيقال: مبدع المبدعات، ومخترع الكائنات ومتقنــها ومتممهــا، ومكملها، ومبلغها إلى أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها، بحسب ما يتــأتى في كل واحد منها.

الفصل السادس: طبيب الأرواح وعلاماته

أولاً: طبيب الأرواح

إن النفوس لتمرض كما تمرض الأشباح، وإن مرض النفس أنكى من مرض الأشباح، فإن الجسم إذا مرض سينتهى إلى الموت، والنفس إذا مرضت ستنتهى إلى نار جهنم، ولا بد من الموت، فتجب العناية بمعالجة النفس قبل معالجة الجسم، فإن سعادة النفس بها سعادة الجسم الباقية، وسعادة الجسم لا تستلزم سعادة النفس.

طبيب الأرواح هو إنسان جمله الله –تعالى– بالعقيدة الحقة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والمعاملة الحسنة ومنحه ما هو فوق الأذن بالبيان، وعلم سيما الناس، قال سبحانه: ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ (الأعراف: ٤٦). فأمكنه أن يبين الحقائق لكل طبقة من الناس بقدرهم، وأن يعالج أمراض النفوس بما تنجذب به لحضرة القدوس، وهو في عصره أشبه الناس برسول الله ﴿﴾ خلقاً وخلقاً.

ثانياً: علامات طبيب الأرواح

أكبر علاماته ما وصفه الله تعالى به في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥). وفى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ

ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾

(الحج: ٤١). وما وصف الله به أهل معية رسول الله ﴿ ﴾ في آخر الفتح، ومن علاماته زهد في الدنيا وفقر في غنى، وذل في عز، وخشية من الله –تعالى– مع كمال الإقبال عليه سبحانه وحب في الفقراء، ودوام مراقبة الله تعالى، وحرص على سنة رسول الله ﴿ ﴾ وحب النصيحة لجميع الخلق، وبعد عن زيارة الأمراء والأغنياء، وتحمل للشدائد، وعفو مع المقدرة، وإيثار مع الحاجة وغيرة لله مع المسكنة، وعلم يضيء في ظلمات الشبهات، وأهم علاماتهم أن يغضبوا لله، وأن يرضوا لله، ومن هم؟ وأين هم؟ قلوا –والله– وهم سرج الدنيا، ومصابيح الآخرة. واختفوا وهم شموس مشرقة في ملكوت الله، واحتقرهم الناس رغبة في الدنيا، وبهم سعادة العالم أجمع، كما قال علي عليه السلام في الحديث الطويل: وأين هم؟ ومن هم؟ واشوقاه إليهم، اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، وإما باطناً مغموراً لئلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته.

الفصل السابع: تنبيه للسالكين من الاقتداء بالمضلين

كثر أطباء الأشباح كثرة فاقت الحصر، وانتشر بين الناس دعاة إلى الشر، يدعون الناس إلى غضب الله، ظاهرهم ظاهر الأنبياء وقلوبهم قلوب الشياطين، حفظ الله جماعة المسلمين من شرهم، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ (النساء: ١١٤). وهنا ننبه االسالكين إلى هذا الأمر العظيم، لأن اقتداءهم بالمضلين موجب لغضب الله تعالى، وكيف لا؟ والحق لا يخفى على مسلم، لأن النجاة لا تتحقق إلا باتباع رسول الله ﴿ﷺ﴾ وكيف يقتدى مسلم بمن يخالف أحكام القرآن، وأعمال النبي ﴿ﷺ﴾؟. وأصل المحبة إنما هي لله ولرسوله، قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٧).

الفصل الثامن: معاني صحبة المرشد

السالك في طريق الله تعالى يصحب المرشد لمعان ثلاثة: المعنى الأول: تحصيل العلم النافع. المعنى الثانى: تلقين في العمل الذي هو من صحيح السنة. المعنى الثالث: تمرينه على اكتساب الأدب اللائق للوصول إلى الله تعالى. قال موسى وهو من -أولي العزم- للخضر -وهو ولى مرشد- ملتمساً معه الصحبة: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ (الكهف: ٦٦). فعلم الخضر من موسى أنه يريد أن يتعلم سر الإرادة، ومضنون سر القدر فقال:﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ (الكهف: ٦٧). كما أخبر الله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ (الكهف: ٦٨). ومع ذلك فإن السالك يلزمه أن يحصل العلم، وأن يعمل به، حتى تزكو نفسه، ويزول لبسه، وبعد ذلك يكاشف بأسرار الغيب في الكائنات وفي نفسه، وبغيب الغيب لما يلقيه المرشد عليه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ (الكهف: ٦٨). مع أني تلقيت هذا العلم من عند الله فأنا أبرزه في صور إشارية، لم يسبق لك تحصيل العلم بأصولها، فأجابه موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ (الكهف: ٦٩). ولما كان علم الخضر يباشر تلك الحقائق، التي يبرزها فوق علم اليقين، بل هو في مقام عين اليقين، سلم له، معتقداً عدم صبره من دلائل العلم بأصول تلك الحقائق التسليم للمرشد في جميع أقواله وأعماله وأحواله، تسليماً خالصاً من غير ريبة ولا شك، ولكن يلزم أن يكون مع الابتهال إلى الله تعالى أن يكشف غوامضها، ولكن الكليم -عليه السلام- لأنه من أولي

العزم لا يقوى على التسليم للخضر، بل كانت تدعوه مكانته من الرسالة إلى كشف سر كل حدث يحدثه الخضر. والمرشد لا يسأل، ولكنه يبين للسالك تلك الحقائق بحسب ما يرد عليه، فدعت الحقائق موسى أن يسأل على كل حدث، فأجابه الخضر عن الأولى الغيب، وعن الثانية بعد التنبيه، عن الثالثة وفارقه.

مَرْقَى ٱلْوُصُولِ إِلَى ٱلْمَقَامِ ٱلأَكْمَلِ   حُسْنُ ٱقْتِدَاءٍ بِٱلْوَلِيِّ ٱلْكَامِلِ
صِدْقُ ٱلإِرَادَةِ فِي ٱتِّبَاعِ سَبِيلِهِ   إِذْ كُلُّ فَضْلِ ٱللَّهِ صِدْقُكَ لِلْوَلِي
كُنْ أَنْتَ هُوَ فِي قَصْدِهِ وَمُرَادِهِ   وَكُنِ ٱلذَّلِيلَ لَهُ وَمَنْزِلُهُ عَلِ
أَسْرِعْ إِذَا أَيْقَنْتَ أَنَّ مُرَادَهُ   فِي أَمْرِهِ وَبَدَا لِقَلْبِكَ كَٱلْجَلِي
لاَ تَفْعَلَنْ غَيْرَ ٱلْمُرَادِ لَوَ ٱنَّهُ   أَبْدَىٰ لَكَ ٱلأَمْرَ ٱلشَّدِيدَ بِمُجْمَلِ
وَإِذَا فَعَلْتَ ٱلأَمْرَ وَهْوَ مُخَالِفٌ   تُبْ نَادِمًا مِنْهُ بِغَيْرِ تَأَوُّلِ
فَلَهُمْ شُئُونٌ لاَ يَلُوحُ خَفِيُّهَا   إِلاَّ لِمَيْتٍ عَنْ هَوَاهُ بِمَعْزِلِ
قَدْ يَأْمُرُونَ بِغَيْرِ مَاهُوَ قَصْدُهُمْ   وَمُرَادُهُمْ يَبْدُو لِفَرْدٍ عَامِلِ
طَوْرًا تَرَاهُمْ وَٱلْبَشَاشَةُ حَالُهُمْ   وَمَقَامُهُمْ حَقًّا بِأَرْهَبِ مَنْزِلِ
آنًا تَرَاهُمْ فِي ٱنْقِبَاضٍ ظَاهِرٍ   وَشُهُودُهُمْ يُنْبِي بِسِرِّ تَجَمُّلِ
فَٱحْذَرْهُمُو فِي قَبْضِهِمْ أَوْبَسْطِهِمْ   وَكُنِ ٱلْوَلِيَّ لَهُمْ بِسِرِّ تَنَزُّلِ
وَٱبْذُلْ لَهُمْ قَبْلَ ٱلإِشَارَةِ كُلَّ مَا   تَمْلِكُهُ مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ وَاصِلِ
وَلَدَى ٱلإِشَارَةِ فَٱبْذُلِ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي   تُعْطَىٰ بِهَا وَجْهَ ٱلْجَمِيلِ ٱلأَوَّلِ
وَكُنِ ٱلْمُقَصِّرَ دَائِمًا لَوْ أَنَّهُمْ   رَفَعُوكَ أَعْلَىٰ رُتْبَةٍ أَوْ مَنْزِلِ
وَإِذَا بَذَلْتَ ٱلنَّفْسَ فِي مَرْضَاتِهِمْ   فَتَحَقَّقِ ٱلتَّقْصِيرَ كُلَّ تَسَاهُلِ
وَبِذَاكَ تُعْطَى ٱلْفَضْلَ وَٱلرِّضْوَانَ مِنْ   مَوْلاَكَ بِٱلزُّلْفَىٰ وَإِحْسَانِ ٱلْوَلِي

يَـــاذَا ٱلْعَطَايَـــا وَٱلْهِبَـــاتِ فَــوَفِّقَنْ   رُوحِي لِتَحْظَـــىٰ بِٱلْجَمِيـــلِ ٱلأَزَلِـــي

جَـــمِّلْ حَبِيبِي ظَاهِرِي مَـــعَ بَـــاطِنِي   بِجَمَالِ فَضْلِكَ يَاجَـــــمِيلَ ٱلسَّـــائِلِ

وَعَلَى ٱلْحَبِيبِ ٱلْمُصْطَفَىٰ شَمْسِ ٱلْهُدَىٰ   مِنْكَ ٱلصَّلاَةُ مَعَ ٱلسَّـــلاَمِ ٱلأَكْمَـــلِ

الفصل التاسع: أدب السالك

كل سالك يتأثر بأذنه يجب أن يفر من أهل البدع المفتونين، ومن أهل الشرور المبطلين، حتى تتلقى نفسه من عالمها الأعلى، فتكون له الحجة على من خالفه بعد اتضاح المحجة.

للسالك نشوة من خمرة المحبة تجعله في مقام التمكين، في مقامات القربة، فلا يضره المخالف وإن كان ذا سلطان قاهر، ومثل هذا السالك محبوب مراد، أينما حل أفاد، وللعناية أفراد سبقت لهم الحسنى، ليس بين الرجل منهم وبين الوصول إلا أن يسمع الحكمة من فرد موصول، وإن الوصول إلى الله –تعالى– لأهل هذه المقامات بكلمة واحدة، وبرهان ذلك أصحاب رسول الله ﴿ ﴾.. سمعوا كلمة التوحيد فبلغوا مقامات التحقيق. والمراد بهذا المقام العلي قد ينتفع بالحكمة ممن هو غير أهلها، فإنها تفك رمز كنوز الغيوب، وتصرف عن النفوس الشك والريب، ولعلك فقهت قول رسول الله ﴿ ﴾: (رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ)[1]

قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (المائدة: ٥٤).

ويفهم أن ﴿فَسَوْفَ﴾ هذه تفيد أن هؤلاء القوم يأتون بعد أن يرتفع رسول الله

﴿ ﴾ إلى الرفيق الأعلى، وأهل هذا المقام ما فقدوا إلا الجسم المحمدي، ولكن رسول الله ﴿ ﴾ بمعناه معهم حيث كانوا، لم يفارقوه نفساً.

---

(١) [رواه البخارى في كتاب العلم باب ٩، والترمذى في كتاب العلم الباب ٧، والدارمى في المقدمة الباب ٢٤، وابن ماجة في المقدمة الباب ١٨].

الفصل العاشر: أدب السالك مع المرشد

لما كان المرشد صورة رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالنسبة للسالك، والسالك الصادق تتوالى عليه الواردات التي تدعوه إلى طمأنينة القلب، ولا يطمئن القلب إلا بالبيان، كل البيان، والمرشد أعلم بقواه القابلة منه، وقد يمتحن تسليمه بعمل ما تترعج منه العقول، أو يقول ذلك لتقوم الحجة على كمال تسليمه، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء: ٦٥).

والميزان الراجح في هذا عمل موسى مع الخضر عليهما السلام، قال الله تعالى مخبرا عن موسى مع الخضر عليهما السلام: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ (الكهف: ٦٦-٦٩).

أنظر يا أخى إلى تلطف موسى وتواضعه، وإلى خشونة الخضر وتصريحه بما لا تقبله النفوس الكبيرة، فضلاً عن نفوس الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولكن هذا القول امتحان منه ليعلم قوة تسليم موسى -عليه السلام- وفي هذه الآية أكبر عبرة للسالك والمرشد، فإذا قال للمرشد: لم، بعد أن قامت الحجة، ووضحت المحجة، على أنه يصحب مرشداً كاملاً، كان ذلك نقصاً في حسن اتباعه له. وانظر إلى فعل الخضر الذى يخالف ظاهر الشريعة، وكليم الله إمام الشريعة وأكمل الناس غيرة لها، وكيف لا؟ وقد سأل الله أن يهلك فرعون ومن معه

غيرة للشريعة، ومن هذه الآية الشريفة وجب على السالك أن ينظر إلى المرشد بعين الروح، لا بعين العقل، لأن المرشد الكامل يعمل واجب الوقت، لأنه ألهمه الله تعالى.. علم ما لم يعلمه الناس، وفقهه في الدين.. إلا أن السالك يجب أن يقف عند حد الشريعة فيما يختص بنفسه، غير منتقد ولا متأول، حتى يكشف له المرشد عن الحقائق التي يطمئن بها قلبه بعد التسليم للمرشد، فإن طمأنينة القلب فوق الإيمان قال تعالى لخليله عليه السلام: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ (البقرة: ٢٦٠). وطريقنا كله أدب، ولا أدب إلا بالمحبة، ولا محبة إلا بالعلم، ولا علم إلا بالاستقامة، ولا استقامة إلا بالإيثار. اللهم اهدنا صراطك المستقيم يارب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

لَدَى مَجْمَعِ ٱلْبَحْرَيْنِ فِي ٱلْمَطْلَعِ ٱلْحَدِّ ... تَرَاءَتْ سِرُّ ٱلْجَمْعِ فِي ٱلْوَصْلِ وَٱلْوِرْدِ

تَذَكَّرْتُ مُوسَىٰ وَٱلْفَتَىٰ فِي سِيَاحَةٍ ... فِرَارًا إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ فِي جَذْبَةِ ٱلْوُدِّ

إِلَى ٱلْعَبْدِ يَرْجُو كَشْفَ سِرِّ حَقَائِقٍ ... مِنَ ٱلْغَيْبِ بِٱلتَّأْوِيلِ فِي بُغْيَةِ ٱلرُّشْدِ

فَخَرْقُ ٱلسَّفِينَةِ رَمْزُ سِرِّ تَوَاضُعٍ ... فَيَسْلَمُ مِنْ شَرِّ ٱلنُّفُوسِ وَمِنْ صَدِّ

وَقَتْلُ غُلَامٍ فِيهِ ثَمَّ إِشَارَةٌ ... إِلَى قَلْبِ خِضْرِ ٱلطَّبْعِ بِٱلْوَهْمِ فِي ٱلْعَهْدِ

وَرَفْعُ جِدَارٍ فِيهِ حِفْظُ أَمَانَةٍ ... لِتُعْطَىٰ لِأَهْلِيهَا بِصِدْقٍ بِلَا رَدِّ

وَفِي عِلْمِنَا ٱلتَّأْوِيلُ رَمْزُ إِشَارَةٍ ... لِيَفْقَهَهَا أَهْلُ ٱلْمَقَامِ بِلَا كَدِّ

عُلُومٌ عَلَتْ عَنْ دَرْكِ عَقْلٍ وَفِكْرَةٍ ... بِهَا يَجْحَدُ ٱلْخِبُّ ٱللَّئِيمُ لَدَى ٱلْبُعْدِ

وَفِي مَجْمَعِ ٱلْبَحْرَيْنِ لَاحَتْ حَقَائِقٌ ... بِهَا شَاهَدَتْ رُوحِي جَمَالًا مِنَ ٱلْمَجْدِ

مِنَ ٱلْبَحْرِ مَاءِ ٱلْمِلْحِ كُوِّنَتْ نِيلَنَا ... رَجَعْتَ إِلَيْهِ تَبْتَغِي بَهْجَةَ ٱلْعَوْدِ

وَقَدْ صَاغَنَا ٱلرَّحْمَٰنُ صُورَةَ حُسْنِهِ ... إِلَيْهِ يُعِيدُ ٱلْعَارِفِينَ كَمَا يُبْدِي

إِلَيْكَ ٱجْذِبَنَّا وَٱجْمَعَنَّا بِرَحْمَةٍ ... فَإِنَّا شَهِدْنَا مَجْمَعَ ٱلْبَدْءِ فِي ٱلْحَدِّ

رَأَيْتُ نَعَــمْ بَحْــرَيْنِ نِــيلاً وَأَبْيَضًــا   لَقَدْ جُمِعَا وَٱلأَصْلُ يُجْمَــعُ بِٱلْقَصْــدِ

مِنَ ٱلْبَحْرِ بَحْرِ ٱلرُّومِ يَانِيــلُ فَــٱدَّكِرْ   أَيَاأَيُّهَــا ٱلإِنْسَــانُ سَــابِقَةَ ٱلْوَعْــدِ

بِيُمْنَاهُ جَلَّ ٱللَّــهُ صَــاغَكَ صُــورَةً   وَأَظْهَرَكَ ٱلرَّحْمَٰنُ فِي ٱلْكَــوْنِ لِلــرَّدِّ

أَعِدْنَا إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ فِي حُلَّــةِ ٱلرِّضَــا   إِلَــٰهِي وَأَيِّدْنَا بِحُبِّــكَ فِــي ٱلْــوِرْدِ

أَمِتْنَا عَلَى ٱلإِسْلاَمِ وَٱجْعَــلْ قُبُورَنَــا   رِيَاضَ جِنَانٍ فِي ٱبْتِهَاجٍ وَفِــي سَــعْدِ

لَنَا فَٱفْتَحَنْ كَنْــزَ ٱلْعَطَايَــا عَمِيمَــةً   [illegible] ٱلرِّضْوَانَ وَٱلْفَضْلَ [illegible]

وَأَوْلاَدَنَا أَكْــرِمْ بِفَضْــلِكَ وَٱلرِّضَــا   لإِخْوَانِنَا هَبْ وَاسِعَ ٱلْفَضْــلِ بِــٱلْوُدِّ

الباب الثالث

من أسرار الصوفية في العلم والعلماء

الفصل الأول: حاجة المجتمع إلى علم الآخرة وعلمائها

إن احتياج المجتمع إلى العلم والعلماء فوق احتياجه إلى الخبز والهواء والماء، وليس العلم الذي هو ضروري للإنسان ما يحصله لينال به جاهاً في دنياه، ومنزلة عند الوزراء والأمراء، وتيسيراً لكمالياته، فإن هذا لا يسمى علماً، بل هو فن أو حرفة، وكل فرد من بني الإنسان ينافس في تلك القصود فوق منافسة الأسود لاغتيال الحيوانات الداجنة، وعندي أن متقن الفن، ومحسن الحرفة خير للمجتمع حساً ومعنى، ممن حصل ما يسمونه علماً لجلب الدنيا؛ لأنه أضر على المجتمع من الوحوش الكاسرة، وكيف لا، وكل واحد منهم يتفنن في إسقاط الآخر بكل ما يمكنه من إيقاع به، أو نشر ما يضره عنه، بأساليب الكيد والحسد، والغيبة والنميمة والكذب، ليفرح بالانتقام من نظيره، ويسر باستيلائه على ما في يده من جاه أو منصب أو صلة بعظيم؟ فهم علماء نعم، ولكن بطرق الوصول إلى الدنيا، وحكماء نعم، ولكن بأساليب العظماء، والاستيلاء على أفكارهم، وأعني بالعلم العلم النافع، الذي به سعادة المجتمع في الدنيا والآخرة، وهو العلم الذي يكسب الإنسان صدقاً في لهجته، والقلب إخلاصاً في نواياه، وخشوعاً من هيبة المعلوم، والجسم زهداً فيما يكرهه الله، والعقل ترفعاً عن أن ينخدع بالحس ومقتضياته، والنفس رهبة من الله وسكوناً إليه، وهذا هو العلم الذى أثنى الله على أهله، وفرض طلبه.

الفصل الثاني: علم الدنيا وعلماؤها

وإنا – والحمد لله – أصبحنا وقد توفرت لدينا معاهد العلوم التي تحصل فيها أدوات الدنيا وآلاتها، وتعددت تلك المعاهد حتى أصبحت لا تحصى عداً، فأصبح للطلب مدرسة، وللبيطرة مدرسة، وللتجارة أخرى، وللزراعة مدرسة، ولعلوم الرياضة بأنواعها مدرسة، ولرجال الإدارة مدرسة (مدرسة البوليس)، ولرجال الجهاد مدرسة (مَدْرَسَةُ ٱلْحَرْبِيَّةِ)، وللقائمين بالأحكام مدرسة (ٱلْحُقُوقُ وَٱلْقَضَاءِ)، وللفنون الجميلة أخرى، وللصناعة مدارس، وقد انتشرت دور الصناعة (ٱلْوِرَشُ) مع ما للأجانب من المدارس التي يحصل فيها أبناء مصر من العلوم والعوائد والأخلاق، كل ذلك لم يكتف المولعون بالتقليد به، حتى هموا ليخفوا آثار العلم النافع، ويطفئوا أنواره الباقية في مصدره الحقيقى، ولا ندري أشراً أرادوا أم خيراً بحسب حكمهم، وتقليداً عملوا أو اجتهاداً بحسب زعمهم، فجعلوا مدارسهم لتحصيل ما ينفع تلك الدار الدنيا، وينفع عند أهلها، ويكسب الجاه والشهرة والمنافسة في حطامها، حتى أصبح الطالب يفد عليها: وكله أمل أن يحصل كذا لينال كذا، ويكون مثل فلان، اللهم إلا من كان جوهر نفسه من أنفس الجواهر، وأنه ينفع فيما هو مؤهل له، فإنا نسأل هذا السؤال: هل ما يعلم فرض عين أو فرض كفاية؟ وهل إذا كان فرض كفاية فهل في الأمة من قام به من خريجى غير الأزهر أم لا؟ وهل إذا قام به رجال حصلوا العلوم في غير الأزهر فلم لا يكون الأزهر ينبوعاً من ينابيع العلم النافع للمجتمع الإسلامى؟ (وأسألهم سؤالاً آخر): هل من علم الآخرة علم اليقين، وما فيها من النعيم المقيم والعذاب الأليم، وعلم الدنيا علم اليقين، وما فيها من العناء، وما هي عليه من الزوال والفناء، وأن لكل نفس سجلاً يطوى ينشر يوم

القيامة، ينفق أنفاسه، أو يضيع أوقاته مفسدًا، أو يسعى للشرف والبزخ والجاه، وجلب الأموال والتزلف إلى الأمراء والعظماء؟ أرجو أن يكون الجواب سديدًا.

وسؤالاً ثالثًا: أرجو أن يبينوا لي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٨). مع تعريف الخشية، ومحلها، والأحوال التي تنتج عنها، وهي الحجة على تصديق المدعي لها، وسأشرح بعد حقيقة العلم النافع للناس، والفرق بين علماء الدنيا والآخرة، وفوائد علماء الآخرة للمجتمع، ومضار علماء الدنيا للمجتمع، والله ولي التوفيق.

الفصل الثالث: الشيطان والإنسان

الإنسان يجهل نفسه، مع أنه هو الإنسان، ويجهل حقيقة ينسب إليها كل الشرور، معتقداً عداوتها، فلا ترى إنساناً إلا وهو يلعن الشيطان، وينسب إليه ما يعمله من الشرور.

وما دام الإنسان يجهل نفسه، فهو بعيد عن الفضائل، محروم من نيل الكمالات، وما دام يجهل الشيطان فهو هاو في مهاوى المقت والعذاب، لأنا نرى كثيراً من الناس يتلذذون بالشرور، ويبتهجون بضرر الغير، مفتخرين بتلك الرذائل، فرحين بوقوعها منهم على غيرهم، فإذا قابلهم الغير بمثلها لعنوه، وقالوا: شيطان وشنعوا عليه، وذموه، واستنجدوا بالناس عليه، ليطهروا الأرض منه، فيرون أقبح القبائح من أنفسهم حسناً، ويرون الهفوة من غيرهم أقبح القبائح، كل ذلك لجهلهم بأنفسهم وبالشيطان.

ترى الجاهل يذكر فضائل الغير حامداً له، شاكراً متعصباً له، غيوراً عليه، ناشراً فضائله، مع أنه إنسان نظيره، يمكنه بسهولة أن يبلغ ما بلغه من الكمالات. هذا وبينما تراه يمدح فضائله يقع في الرذائل التي هي من صفات الشيطان.

إنك ترى الفسقة والفجار والظلمة يهابون الأتقياء، ويعظمونهم، ويتبركون بهم، حباً في الفضائل، وإكراماً للتقوى، ومع ذلك يصرون على الشرور والقبائح، ولو أنهم عرفوا أنفسهم، وعرفوا الشيطان، لتجملوا بتلك الفضائل بسهولة. ولصاروا أئمة هدى، يحبهم الله ورسوله ﷺ ويحبهم الناس جميعًا.

وهنا لو سألني سائل: كيف أعرف نفسي وأعرف الشيطان؟ أجيبه: قال

رسول الله ﷺ: (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) [رواه أبو المظفر بن السمعاني عن يحيى بن معاذ الرازى، وقال النجم قلت وقع في أدب الدين والدنيا للماوردى عن السيدة عائشة رضي عنها].وقال ﷺ: (أَعْدَىٰ عَدُوِّكَ نَسُكَ ٱلَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ) [رواه البيهقى في الزهد وله شاهد من حديث أنس رضى الله عنه]. وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (فاطر: ٦).

وقد وردت الآثار في كل الكتب السماوية بعداوة الشيطان، مبينة أعماله وطرق التحفظ منه، ولكني أجيب على هذا السؤال: إنك أيها الطالب معرفة نفسك، ومعرفة الشيطان طلبت مقصداً عظيماً، يجب أن ينال علماً وعملاً، وطالب السعادة الأبدية يبذل لنيلها أنفاسه النفائس مستقلا لها، فاطلب عارفاً بنفسه، عارفاً بربه، تعرف الحقائق.

العلم حد وفوق العلم أنوار ... والنور غيب وفوق الغيب أسرار
والسر يجذبني لشهود حضرته ... والكشف ظل وفوق الظل أقدار
لي خلوة في مقام القرب غامضة ... عن كل روح بها الإحسان مدرار
من فوق ذلك غيب الغيب في عما ... منزه لم يرى معه أبصار
لم تدركه عقول في نزاهته ... لكن يراه فتى لله مختار
فيه يغيبني عني بطلعته ... وهو الولي وتواب وغفار
بعد الفناء فلا رسم يجنبني ... أمحى عن الروح والمشهود ستار
لي فوق ذلك ما لا قد أبوح به ... فوق الإشارة لا تبديه أخبار
في قهر حالي قد أخفى فأظهره ... رمزا وفيه الفتى المحبوب يحتار
لي نشوة بعد رشف الراح تسكرني ... فيها الجميل تجلى وهو قهار

ٱلْحَقُّ يُظْهِرُنِي طَوْرًا وَيَسْتُرُنِي ... وَٱلسِّتْرُ فِي ٱلْقُرْبِ حَالَ ٱلصَّحْوِ إِظْهَارُ

أَلْقَى عَلَيَّ مَحَبَّتَهُ لِيُظْهِرَ لِي ... نُورًا بِهِ تَخْتَفِي فِي ٱلْقُرْبِ آثَارُ

نُورَ ٱلتَّحَدِّ فَنَزِّهْ عَنْ مُشَابَهَةٍ ... قُلْ مِنْ إِشَارَاتِ مَنْ وَصَلُوا وَمَنْ سَارُوا

سَلِّمْ فَنُورُ ٱلتَّجَلِّي ذَاكَ مَنْ شَهِدُوا ... لِي أُفُقِ ٱلْوُدِّ فِي ٱلتَّقْرِيبِ إِسْفَارُ

قَدْ دُكَّ طُورُ ٱلتَّجَلِّي لِي وَقَدْ صُعِقَتْ ... رُوحُ ٱلْكَلِيمِ وَقَدْ لَاحَتْ لَهُ ٱلنَّارُ

صَارَتْ لَهُ ٱلنَّارُ نُورًا وَٱلْجَمَالُ غَدَا ... بِٱلْقُرْبِ قُدْسًا وَقَدْ وَلَاهُ جَبَّارُ

نُودِي ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ يَا مُوسَى فَكَلَّمَهُ ... وَٱلْكُلُّ نُورُكَ وَٱلنِّيرَانُ أَنْوَارُ

تِلْكَ ٱلْعِنَايَةُ مِنْ أَزَلٍ إِلَى أَبَدٍ ... تُولِي وَإِحْسَانُهُ بِٱلْحُبِّ مِدْرَارُ

الفصل الرابع: محادثة العلم والعلماء

طالب جاهد نفسه جهاداً أكبر لينال بوغيته من العلم، فتحصل على ما مالت نفسه إليه، وناظر شيوخه وأساتذته، حتى ظهرت له المساواة، وكان يعتقد أن أهل العلم لهم درجة عالية بنص قوله سبحانه: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ (المجادلة: ١١).

فلم يجد لنفسه درجة فوق ما كان عليه قبل التعلم، ووجد الذي كان عليه في دار أبيه، من الصلاة والزكاة والصيام لم يزد، وربما حصل التساهل في تأديتها، فعجب وقال: ما الذى اكتسبته من التعلم؟ وابتهل إلى الله –تعالى– أن يكشف له الستار عن الحقيقة، وأن يبين له أقرب الطرق الموصلة إليه، وأصفى الموارد المقربة منه سبحانه وتعالى، وجلس متوجهاً إلى الله بقلبه، وفي هذا التوجه حضر قلبه. فرأى أنه في مجتمع من أهل الصفا مع الله تعالى، وكأنهم في مجلس علم، وكأن العلم يبين لهم حقيقته، فأصغى بأذن قلبه، متجرداً من هيكله الإنساني ولوازمه، مقبلاً بكليته على التلقي، فسمع العلم يقول: إنما يحتاج إليَّ عند غيبة الحقيقة، لأرسمها على جوهر النفس بمقدار قابلية النفوس، لا بقدر الحقيقة على ما هي عليه، فإذا صفى جوهر النفس، ورسمت عليه صورة الحقيقة، تاقت النفس إلى جلية الأمر وكليته، فارتقت من العلم إلى الذوق، ومن الذوق إلى الشهود وجدا، ومن الشهود إلى العيان وجوداً، ومن تلقى العلم فظن أنه بلغ الغاية بالعلم، حرم الرعاية، وهي العمل بالعلم، فإن كمال العلم العمل به؛ لأن العمل به دليل على حصول علم الرعاية للعالم، ومن حرم الرعاية حرم العلم (أي: لازمه)، وأنا وإن كنت مقصداً عظيماً لمن رغبوا في السعادة إلا أني

بعد تحصيلى أكون وسيلة لمقصد عظيم، وكل علم لم يكن معلومه الله ورسوله، فهو في غايته تحصيل ما به حفظ الصحة وبقاء الحياة في كون الفساد. سألني أحد أهل الصفا الجالسين قائلاً: يا أخى، ولو كان علم أحكام الله تعالى؟ قلت: نعم، فإن من تعلم الأحكام قبل العلم بالحاكم هلك وأهلك. أنظر إلى العلماء من أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ كانوا يكرهون الولاية، كسيدنا على بن أبى طالب عليه السلام حين ولاه رسول الله ﴿ﷺ﴾ المدينة في غزوة تبوك، وكمعاذ بن جبل حين ولاه رسول الله ﴿ﷺ﴾ اليمن، حرصًا على دوام مواجهة رسول الله ﴿ﷺ﴾ وكأبي حنيفة الذى ضرب على الولاية فأباها. وابن أبي ليلى، وابن جريج، ومالك بن أنس الذي ضرب وأوذى – رضى الله عنهم أجمعين –لأنهم تعلموا الإيمان، ثم تعلموا القرآن، ثم الأحكام.

وسأله آخر: قائلاً: يا سيدى، إن أكثر العلماء الآن يهتمون بتحصيل علم الأحكام والأخبار والأقاصيص، فقال: أما الذين يتعلمون الأخبار فهم أهل الشهرة، لأنهم يحفظون الأحاديث باختلاف الروايات، ويعلمون التجريح والتعديل، حتى يكون لهم المنزلة العليا، وأما الذين يتعلمون الأقاصيص، فهم الذين يحبون أن يكونوا شيوخاً على العامة، لينالوا حظهم، أما العلم الذى هو علم يطلبه أهل الصفا والوفا من خيرة عباد الله، فهو العلم بالله، والعلم بأيام الله، والعلم بآداب سلوك طريق الله تعالى، وهذا لا يقبل عليه إلا من سبقت لهم الحسنى من الله تعالى؛ لأنها عناية أزلية تجذب النفوس إلى ما خلقت له، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ (الأحزاب: ٤١، ٤٢). وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾

(البقرة: ٢٨٢). وقال ﴿ ﴾: (ٱعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ)[1] وليس تحصيل الأحكام بعلم يقرب من الله تعالى، ولكنه يقرب من الملوك، ومن حصل العلم بالأحكام ولم يحصل العلم بالحاكم، كان ممن لم يجعل الله لهم نوراً، ولم تحصل التفرقة بين جماعة المسلمين، والخلاف بينهم، إلا ممن حصلوا العلم بالأحكام، ولم يهبهم الله تعالى العلم به سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٨).

بأي علم؟ قال: العلماء بالله تعالى، ولكن العلماء بالأحكام لا خشية في قلوبهم من الله تعالى، وكيف تكون في قلوبهم الخشية؟! وهم أسرع الناس منافسة في الوظائف، والتقرب من الملوك والأمراء، والخوف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجاراة أهل الأهواء لا للمداراة ولكن للمداهنة؟ ولو أن الخشية من الله تعالى في قلوبهم لرخصت الدنيا في أعينهم، بل رخصت دماؤهم غيرة للحق، وإن نفساً واحداً في تحصيل العلم بالله –تعالى– يقوى به اليقين، قوة تبذل به الحياة العزيزة غيرة للحق كما فعل سحرة فرعون الذين قالوا له: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ (طه: ٧٢). بعد أن ظهرت لهم آية من عجائب قدرة القادر سبحانه وتعالى، وهذا درس لم يتجاوز أنفاسًا، كيف أنتج بذل الحياة محافظة على الأدب مع الله سبحانه وتعالى؟! وقد فعل أكثر من ذلك أصحاب رسول الله ﴿ ﴾. فقد عذب بلال، وياسر، وزوجته، وابنه عمار،

(١) [رواه البخارى في كتاب القدر الباب ٤ وكتاب تفسير القرآن "سورة الليل" الباب ٣،٤،٥،٧ وكتاب التوحيد الباب ٥٤، ومسلم في كتاب القدر الحديث ٦،٧،٨، والترمذى في كتاب القدر الباب ٣ وتفسير "سورة الليل"، وأحمد في الجزء الرابع صفحة ٦٧].

في الله تعالى، حتى قتلت أم عمار طعناً بالحربة في فرجهـا غـيرة لرسـول الله ﴿ ﷺ ﴾ أن تسمع فيه ما تكره، ومات سيدنا ياسر –وهو مـولى– مـن فـادح العذاب. وكان ينجيه أن يداري قريشاً، وكم عذب في الله رجال حتى فـارقوا أوطانهم وأعراضهم وأموالهم، وأبت خشية الله التي في قلوبهم أن يداروا، فـإذا كان العلم بأحكام الله تعالى ينتج الخشية من الله –تعالى– لما رضى العلمـاء أن ينافسوا في خدمة الملوك والأمراء، على ما هم عليه من البدع المضلة، والأهواء المضرة، وكيف يرضى العالم الذى يخشى الله تعالى أن يشترى بآيـات الله ثمنـاً قليلاً، ويبيع الآخرة بالدنيا، ويرى معالم الله قد انتهكت، وحدود الله قد عطلت، وشعائر الله قد استهين بها، وهو متلذذ بطعام شهي، وثوب بهى، وفراش وطي، وخدم وحشم، يداهن الأمراء ويرضيهم في غضب الله تعالى؟ وكيف يكون عالماً من يجعل العلم آلة لجمع الدنيا، أو يتعلم ليتولى رئاسة أو ولاية؟.

سأل آخر: فقال: يا سيدي العلم، أليس هؤلاء بعلماء؟ قلت: لا. ليسـوا علماء؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن يكره، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب، وإنما هذه فنون صناعية كالصناعات الأخرى، يتحصل عليها المؤمن والكـافر بصفته إنساناً. أما العلم النافع: فإنه فضل من الله تعالى، يهبه الله تعالى بالفضـل لمن يشـاء، قـال تعـالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١–٤). وإني لا أحل قلبًا إلا ولزمتني الخشية، ولا ينـالني إنسان إلا وسبقتنى الرعاية، ولا يتحصل عليَّ طالب إلا وتكشف له الدنيا عـن حقيقتها، فرغب، وتجافى بجانبه عنها، وسارع إلى مغفرة من ربه وجنة عرضـها السموات والأرض. والله الموفق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هُوَ ٱلْعِلْمُ لاَ يُجْلَىٰ بِغَيْرِ ٱلْحَقَائِقِ　　وَعِلْمٌ بِكَشْفٍ فِيهِ قُرْبٌ لِخَالِقِي
وَمَا ٱلْعِلْمُ إِلاَّ مَا يُعَلِّمُهُ ٱلْعَلِي　　وَآيُ ﴿ يُعَلِّمُكُمْ ﴾ دَلِيلٌ لِصَادِقِ
وَمَا ٱلْعِلْمُ وَٱلأَعْمَالُ مِنْ غَيْرِ خَشْيَةٍ　　سِوَىٰ آلَةٍ صَمَّاءَ سُؤْلِ ٱلْمُنَافِقِ
وَفِي أَوَّلِ ﴿ ٱلرَّحْمَنِ ﴾ نُورٌ لِمُهْتَدٍ　　بِهَا ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ﴾ جَذْبُ ٱلْمُوَافِقِ
تَبَرَّأْتُ مِنْ حَوْلِي وَقَوْلِي وَقُوَّتِي　　تَحَقَّقْتُ أَنَّ ٱللَّهَ بِٱلْفَضْلِ رَازِقِي
تَبَرَّأْتُ مِنْ نَفْسِي وَكُلِّ جَوَارِحِي　　أُنِيبُ إِلَىٰ رَبِّي بِإِخْلاَصِ وَاثِقِ
أَيَاعِلْمُ يَاحَالُ وَكُلَّ جَوَارِحِي　　وَيَامَالُ يَاأَوْلاَدُ لَسْتُمْ مُرَافِقِي
أَنِيبُوا مَعِي أَوْ فَٱتْرُكُونِي فَإِنَّنِي　　تَحَقَّقْتُ أَنَّ ٱلْكَوْنَ أَحْلاَمُ وَامِقِ
وَمَرَّارَةٌ دُنْيَايَ بَلْ غَرَّارَةٌ　　وَضَرَّارَةٌ وَٱلْعَبْدُ فِي لَيْلِ غَاسِقِ
فَفِرُّوامِنَ ٱلدُّنْيَا إِلَى ٱللَّهِ سَارِعُوا　　إِلَى ٱللَّهِ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَلاَهِي ٱلْخَوَارِقِ
بِنُورِ رَسُولِ ٱللَّهِ فَٱعْتَصِمُوا وَلاَ　　تَمِيلُوا إِلَى ٱلأَهْوَاءِ مَيْلَةَ مَارِقِ
حَنَانَيْكَ يَاتَوَّابُ تُبْ وَفِّقَنْ لِمَا　　تُحِبُّ مُسِيئًا فِي ظَلاَمِ ٱلشَّقَائِقِ
وَجَمِّلْهُ بِٱلأَحْوَالِ حَالِ مُحَمَّدٍ　　وَخَلِّقْهُ بِٱلأَخْلاَقِ أَخْلاَقِ خَالِقِ
وَطَهِّرَهُ مِنْ غَفْلَةٍ مِنْ ضَلاَلَةٍ　　وَأَعْطِ لَهُ ٱلإِحْسَانَ خَيْرَ ٱلرَّقَائِقِ
وَأَكْرِمْهُ فِي ٱلأَوْلاَدِ فِي كُلِّ أَهْلِهِ　　كَمَا نَالَ خَيْرًا كُلُّ فَرْدٍ وَسَابِقِ

الفصل الخامس: الأمراء هم المفتون

أول ما يجب على المسلم طلب العلم الذي لا بد منه.

فأول واجب طلب علم الإيمان، ويرغب في تعليم أحكام الصلاة من السنة العاشرة من عمره، حتى إذا فرضت عليه الصلاة بالبلوغ فرضت عليه أحكام الصلاة، ويرغب في تحصيل علم الصيام بعد العاشرة من عمره، حتى إذا بلغ فرض عليه تحصيل هذا العلم ليعمل به، ويفرض عليه تحصيل علم الحج إذا توفرت شروطه، وهكذا يتعين عليه تحصيل علم المعاشرة للزواج، ويرغب في تعليمه قبل ذلك، فالمسلم لا يكمل إيمانه إذا جهل الضروري من الدين مما لا بد لكل مسلم منه، علماً وعملاً، وما كان غير ضروري فمنوط به الأمير مما تدعو إليه المعاملة وسياسة المجتمع، ودوام الصفا بين جماعة المسلمين وأهل ذمتهم، وكبح جماح النفوس عن تعدي حدود الله تعالى، ورجوعها إلى الوسط.

كل ذلك يجب أن يقوم به الأمير، ويتعين على كل مسلم أن يرفعه إليه، فإن ذلك من أحكام الله وحدود شريعته، ومن تكلم في هذا بين الناس، وأفتى في مثل هذه الشئون ولم يكن أميراً وعلم به الأمير آخذه، ودام الأمر على ذلك إلى زمان عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه.

الفصل السادس: احتياج الأمراء إلى المفتين

ولما تساهل الأمراء في تحصيل ما هو فريضة عليهم اضطروا إلى أن يعينوا لهم مفتين، يرجعون إلى فتياهم، فكان الأمير يجلس وعلى يمينه مفت، وعلى يساره مفت، وترفع إليه المسائل، وكان الأمراء من الصحابة رضي الله عنهم لا يمنعون من أفتى في شأن من شئون الأحكام والحدود، ولكنهم يجلسون أمام العباد والعلماء بالله -تعالى- يسمعون منهم الحكمة والمعرفة، ويحثون نواهم في البلاد، وجماعة المسلمين على التقرب من أهل العبادة والزهد، حتى كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ أن اقتربوا من أفواه العباد والزهاد فإنه تجلى لهم حقائق صادقة.

ولما أن احتاج الأمراء إلى المفتين، طلبوا إلى العلماء، ورغبوهم، وكان العلماء -رضي الله عنهم- متمسكين بالحق، نظروا إلى الدنيا بعين الإيمان والعلم، كشف لهم العلم عن مبدئها ونهايتها ففروا من الأمراء. دعا أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور أبا حنيفة وابن أبي ليلى وأياس ابن وبيضة ليوليهم فأبى أبو حنيفة عليه، حتى أقسم أبو جعفر بالطلاق ليولينه، فلم يقبل أبو حنيفة، فضرب بالسياط مراراً، حتى كادت روحه تزهق، وبعد ذلك ولاه أبو جعفر عداداً لللبن (الطوب) فرضي أن يكون عداد طوب، ولم يرض أن يكون قاضي قضاة المسلمين في ذلك العصر، ثم أمر ابن أبي ليلى بقبول الولاية، فأقسم بالله العظيم ثلاثاً أنه لا يصلح لها، فإن كان صادقاً في يمينه يولى أمير المؤمنين من لا يصلح، وإن كان كاذباً فأمير المؤمنين يولى كاذباً، واستعفاه فقبل منه. وأمر إياس بن وبيضة بقبولها، فقال: يا أمير المؤمنين، إن ابن أبي ليلى تخلص من النار بيمين حنث يصوم لها ثلاثة أيام، فقال أمير المؤمنين: حيث فقهتها فأنت أولى بها منه،

وولاه مكرها، ثم نافس الناس في الدنيا، فتعلموا العلم للفتيا، فتشبهوا بالأمراء والملوك.

وإن المفتى هو أمير الأمراء، لأنه عليه أن يحكم وعليهم أن ينفذوا، لأنه عالم بأحكام الله تعالى وحدوده، يخشى الله تعالى، ويخاف عذابه، ويرجو نعيمه أكثر من خوفه من الأمراء، فهو إنما يفتى بالحق ولو على نفسه قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ (النساء: ١٣٥). وقال ﷺ: (قَاضٍ فِي ٱلْجَنَّةِ وَقَاضِيَانِ فِي ٱلنَّارِ). وقال ﷺ: (ٱلْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ. قَاضٍ قَضَىٰ ٱلْحَقِّ وَهُوَ يَعْلَمُ فَذَاكَ فِي ٱلْجَنَّةِ وَقَاضٍ قَضَىٰ ٱلْجُورِ وَهُوَ يَعْلَمُ، أَوْ قَضَىٰ ٱلْجُورِ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ فَهُمَا فِي ٱلنَّارِ). [رواهما الحاكم في مستدركه وفى التاريخ عن بريدة رضي الله عنه].

الفصل السابع: المفتون والقضاة في الصدر الأول

قام المفتون والقضاة في الصدر الأول مع الأمراء قوامين لله بـالحق، مثـل الإمام أبي يوسف، والإمام يحيى ابن أكثم، وإياس بن وبيضة، وأهل زمـانهم في جميع الأمصار، يحكم المفتي والقاضي على الأمير فينفذ على نفسـه حكمهـم، طاعة لأمر الله .

رفع بعض الأعراب إلى قاضي المدينة المنورة ظلم أحد خلفاء بنى العبـاس بأخذ جمالهم ولم يدفعوا لهم ما عاهدوهم عليه من المال، فكتـب القاضـي إلى الخليفة: إن سنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ تدعوك لحق عليك، فنوجه رسول القاضي إلى الخليفة وهو واقف أمام روضة رسول الله ﴿ﷺ﴾ وناوله الورقة، فأقسم الخليفـة في نفسه أنه إن أراد القاضي بذلك الشهرة والفخر ليقتلنـه، وإن أراد بـذلك المساواة والعدالة ليرفعنه، وتوجه إلى القاضي، فلما وقف بـين يديـه، نـادى خصمه، وقال: أعط لهذا حقه، فسأله أمير المؤمنين عن حقه، فاعترف به أمـير المؤمنين، وطلب من القاضي أن يصبر عليه حتى يتوجه إلى داره، ويسلم خصمه حقه، فقال القاضى: لا تخرج من مجلسى هذا حتى تدفع ما عليك، وأمر خصمه بالجلوس، وأمر الخليفة بالجلوس، فأرسل أمير المؤمنين من أحضر له المال، فلمـا أن سلمه للقاضي، وسلم القاضي المال للمدعى، أخرجه من المجلس، ثم قام على قدميه غاضاً بصره، وقال: السلام عليكم يا أمير المؤمنين، وقبل يـد الخليفـة، ووقـف أمامـه، فقـال الخليفـة: أكثـر الله في أمـة محمـد ﴿ﷺ﴾ من أمثالك.

ولما احتضر للموت الإمام أبو يوسف بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: لذنب

عظيم أخافه، قيل: وما هو؟ قال: وقف أمير المؤمنين هارون، وخصم له يهودى أمامي، فتمنيت بقلبي أن يكون الحق لأمير المؤمنين على اليهودي، فكان الحق لليهودي، فحكمت له به على أمير المؤمنين، فأنا أخاف من ذنبي هذا.

الفصل الثامن: المفتي فوق أمير المؤمنين

واستفتى أحد أمراء المؤمنين من آل عثمان الإمام أبا السعود مفتى دار الخلافة العظمى، في أن يقهر الناس على الإسلام أو يقتلهم، وكانت السياسة تقتضي ذلك، حفظاً لجماعة المسلمين من الفتن، فأفتى بالحكم الشرعى ناهراً للخليفة وجنده، فخضع الخليفة للمفتي طاعة لله ولرسوله ﴿ ﴾، فكان المفتي فوق أمير المؤمنين أمراً ونهياً؛ ذلك لأنه قام لله بالقسط ناصراً لله ولرسوله ﴿ ﴾، موقنا حق اليقين بقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (محمد: ٧).

هذه وظيفة المفتي للمجتمع الإسلامي، وإنما شرف الوظيفة بقدر شرف نفس القائم بها، وكم من مجد أضاعته نفوس صغيرة، وكم من شرف أضاعته أطماع، وشتان بين نفس تعرف مقدار المجد فتبذل له ما يفنى محافظة عليه، وبين نفس تجهل يوم الحساب فلم تخف نقمة الله ولا العذاب.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ (الأنعام: ١١٦). وقال الله تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا ﴾ (يونس: ٧). وقال تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا ﴾ (الجاثية: ٣٤). وإنما يتعلم العلم للعمل، لا للبذل أو لنيل الحظوظ والأهواء، ومن ذكر الموت وما بعده فر من الرياسة والسيادة والمال، ولزم الفقراء، ليفوز بخير المآل.

الفصل التاسع: شتان بين مفتي الهدى ومفتي الردى

المفتي إما أن يكون نوراً ينفع الله به أهل عصره، بما يستبين به من الحـــق، وهو الذى يرى الحق فوق الخلق، فلا يخاف أميراً في الله تعالى، ولا يخاف مجتمعاً في جانب رسول الله ﴿ﷺ﴾، فالأمة إن اجتمعت عليه لا يخافها، والأمـــراء وإن كرهوه لا يبالي بهم، ما دام مع الحق، وللحق.

وإما أن يكون ظلمه يخفي معالم الحق، فيرضى الخلق ويغضب الحق، وهـــذا ضل وأضل، وهلك وأهلك، والأولى أن مثل هذا ينصحه العقلاء مـــن الأمـــة، ستراً لحاله، خشية من أن التشنيع عليه يدعو إلى غضبه، والغضب يخرجه عـــن الاعتدال، وإنا جميعاً نحب الخير لكل مسلم، ولا عصمة إلا بالله، وأي مســـلم يرضى بمال يفنى، وجاه يزول، وسيادة تنمحي، ويذكره أخوه المسلم بعـــذاب الله، وغضب رسول الله ﴿ﷺ﴾ يوم القيامة، والفضيحة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ولم يقبل؟ (لا أحد).

إن الإنسان بين طاعة ومعصية، كما أنه بين صحة ومرض، وفقر وغـــني، وعز وذل، ولعل المذنب اليوم يتوب غدًا، والله غفور رحيم، والذكرى تنفـــع المؤمنين، والله –تعالى– يرشدنا لخيرا الخيرين، ويدفع عنا الشر والضير.

الباب الرابع:

طريق الصوفية في المعرفة

الفصل الأول: معرفة اللّه تعالى

مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس، كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣). وقال الرسول ﷺ: (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) [رواه أبو المظفر بن السمعانى عن يحيى بن معاذ الرازى، وقال النجم قلت وقع فى: أدب الدين والدنيا للماوردى عن السيدة عائشة رضى الله عنها].

وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: يَارَسُولَ ٱللهِ أَيْنَ ٱللهُ؟ فِي ٱلأَرْضِ أَوْ فِي ٱلسَّمَاءِ؟ قَالَ(فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) [رواه الطبرانى عن أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه].

فخاصية الإنسان العلم والحكمة، وهو أشرف الأنواع، وفيه كمال سعادته، وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال، فالبدن مركب للنفس، والنفس محل للعلم، والعلم هو مقصود الإنسان، وحاجته التي لأجلها خلق، فخاصية الإنسان العلم بالله وصفاته وأفعاله، فكمال الإنسان، معرفة حقائق الأشياء، وجملة عالم الملكوت والملك، إذا أخذت دفعة واحدة، تسمى حضرة الربوبية؛ لأنها محيطة بكل الموجودات، إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى، وأفعاله، ومملكته وعبيده من أفعاله، فما يتجلى من ذلك للقلب فهي الجنة، حسب سعة معرفته، وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله. أما طرق

المعرفة، فهي علوم تحصل في القلب في بعض الأحوال، وهى تارة تهجم على القلب، أي تكون بطريق الإلهام، وتارة تأتي عن طريق الاستدلال، والقياس، والشهود، وغيرها من طرق العلم، فتكون مكتسبة والقلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها، لولا الحجب التي تحجب عنه هذه الحقائق، وقد تهب ريح الألطاف، وتنكشف الحجب عن أعين القلوب، فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ، ويكون ذلك تارة في المنام، فيعلم به ما يكون في المستقبل، ولكن ارتفاع الحجاب لا يتم إلا بالموت، كما يتجلى من قول على بن أبى طالب عليه السلام وكرم الله وجهه: "ٱلنَّاس نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا ٱنْتَبَهُوا".

وهذه الحجب قد ترتفع أيضاً في اليقظة، بلطف خفي من الله تعالى فيلمع في القلب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم، تارة كالبرق الخاطف، وأخرى على التوالي إلى حد ما، ودوام هذه الحال في غاية الندور.

من ذلك ترى أن الصوفية لم يحرصوا على دراسة العلوم وتحصيلها طلباً للحقيقة، وإنما أخذوا أنفسهم بالرياضة الروحية، والإقبال على الله، اعتقاداً منهم بأن ذلك هو طريق المعرفة.

والإجماع عندهم على أن الدليل على الله هو الله وحده، وسبيل العقل عندهم في حاجة إلى الدليل، لأنه محدث، والمحدث لا يدل إلا على مثله، وإذا سألتهم: ما الدليل على الله؟ قالوا: الله. فإن قلت: فما العقل؟ قالوا: العقل عاجز، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله. (ٱلْعَقْلُ آلَةٌ لِلْعُبُودِيَّةُ لاَ لِلإِشْرَافِ عَلَى ٱلرُّبُوبِيَّةِ) فالعقل يجول حول الكون، فإذا نظر إلى المكون ذاب. ومن لحقته العقول فهو مقهور إلا من جهة الإثبات، ولولا أنه تعرف إليها بالألطاف لما أدركته من جهة الإثبات.

مَنْ رَامَـــهُ ٱلْعَـــلِ مُسْتَرْشِـــداً   طَـرَحَهُ فِـي   حَـــيْرَةٍ يَلْهُـــو
وَشَـــابَ بِٱلتَّلْبِيــــسِ أَسْــــرَارَهُ   يَقُـــولُ مِـــنْ حيرَتِــهِ هَــلْ هُــوَ

ولا يعرفه إلا من تعرف إليه، ولا يوحده إلا من توحد له، ولا يؤمن به إلا من لطف له، ولا يصفه إلا من تجلى لسره، ولا يخلص له إلا من جذبه إليه، ولا يصلح له إلا من اصطنعه لنفسه، ومن تعرف إليه بمعنى من تعـرف الله إليـه، ومعنى من توحد له: أي أراه أنه واحد. وتدل الآيات كلها على أن الله تعـالى عرفنا نفسه بنفسه، فقام "شاهد المعرف من المعرفة بالمعرفة بعد تعريف المعـرف بها".

ومعرفة الله تعالى وطاعته واجبة، بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل، خلافًا لقول المعتزلة، فإن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو: إما أن يوجبها لغير فائدة، وهو محال؛ فإن العقل لا يوجب العبث، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض، وذلك لا يخلو: إما أن يرجع إلى المعبود، وذلك محال في حقه تعالى، وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد، وهو أيضاً محال؛ لأنه لا غرض له في الحال، بل يتعـب بـه، وينصرف عن الشهوات بسببه، وليس في المآل إلا الثواب والعقاب.

إن السبيل الموصلة لمعرفة الله، هي معرفة صفاته وأفعالـه، وإن معرفـة الله الحقة، مؤدية إلى أن تعرف أن (الله أكبر)، وهذه المعرفة تصل بك إلى أن يكون رجاؤك في الله وحده، وخوفك منه وحده، وعملك له وحده، وهذا يصل بـك إلى أعظم مرتبة من مراتب التوحيد، وتصل بك هذه المرتبة العظيمة، إلى ما هو أعظم منها، بأن ينكشف لك ألاَّ فاعل إلا الله تعالى، وأن كل شيء في الوجـود من الله، وبالله، ولله.

الفصل الثاني: العارف

الصوفية لا يطلقون (العارف) إلا على من توالى عليه العلم بالله وصفاته، والنظر إلى مصنوعاته، وغلب عليه ذلك، بحيث صار حالاً له، حتى من عرف الله كلَّ لسانه، أي شغلته معرفته به عن ذكر غيره، لأن من عرف الله لا يستغنى عن النظر في عبادته؛ لوقعها بحسب ما طلب، وهذا حق، ولا بد من دخوله قلبه، والشيطان عدوٌّ له، لا يسكت عنه، وذلك باطل، ولا بد أن يدركه بقلبه، ثم يتقيه. فقد حكى الله تعالى عن كعب بن مالك وأصحابه، لما تخلفوا عن غزوة تبوك، وهجروا، إلى أن نزل فيهم قرآن، أنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وذلك لمعرفتهم بالله، وعظمة رسوله، وتخلفهم عن الجهاد مع رسوله، فكل من عرف الجليل لا يحتمل قلبه الاشتغال بغيره، ولا البعد عنه...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثالث: وسائل المعرفة

اختلف العلماء في طريقة المعرفة، فمنهم من قال: إن معرفة الله تعالى بدليل العقل، ومن لا عقل له لا يعرف الله، وأنا أجاريهم في قولهم، وأسألهم: ما هو العقل عندكم؟ هل هو القوة التي بها تدبير المترل ومجتمعه، وبه اختراع المصنوعات، والغلبة بالسياسات، وتحصيل الفنون؟ فإن قالوا: هو، أنكرت عليهم بالبرهان الناصع، لأن أكثر العقلاء من هذا النوع كفار بالله تعالى. وإن قالوا: المراد بالعقل، العقل الذى يعقل عن الله تعالى، المعبر عنه في القرآن الشريف بالنور، في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٤٠). هذا العقل لا يحتاج في معرفة الله إلى بحث ودليل، ولكنه يحتاج إلى مذكر له بالله تعالى وبأحكامه سبحانه وبأيامه ﷻ، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٥٥). وإنا لنرى أكثر العارفين بالله من الذين لا يهتمون بما يهتم به العقلاء من الزخارف، وعلى هذا، فمعرفة الله تعالى فضل من الله تعالى، يتفضل به –سبحانه– على من يشاء من خلقه، وإن أكثر العارفين بالله تعالى هم من أهل التسليم، لا من أهل البحث والجدل، ولعل مولعاً بهذا الموضوع يظن أني لا أحب طلب المعرفة، فأقول له: إن طلب المعرفة فريضة، قال ﴿ﷺ﴾: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) [رواه ابن ماجة في المقدمة الباب ١٧، والمنذري].

وقال ﴿ﷺ﴾: (أطلب العلم ولو بالصين) [رواه ابن عدي والبيهقى من حديث أنس، وكذلك ابن عبد البر والديلمي والخطيب وغيرهم].

فالطلب شيء، والبحث عن الدليل شيء آخر، إنما يبحث عن الدليل

الجاحد، وإنما يطلب المزيد الواجد، وإن حضرة الإلهية لم ينكرها لله -تعـالى- مجوسي ولا صابئي، ولا من أدنى منهم، لأن الإنسان حيوان ديني بالفطرة، وإنما المجهول طريق الوصول إليه، وحقيقة الأدب له، وعلم ما يحبه من العبـد مـن عقيدة وعبادة وقصود وإخلاص وصدق ونية، ولا سبيل إلى العلم بتلك الحقائق إلا بالله تعالى، وقد بعث الرسل مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس علـى الله حجة بعد الرسل.

الفصل الرابع: مراتب المعرفة

العرفان من تفريق، ونقص، وترك، ممعن في جمع صفات الحق للذات المريدة بالصدق منه إلى الواحد، ثم وقوف.. ومن آثر العرفان للعرفـــان فقـــد قـــال "بالثاني"، ومن وجد العرفان كأنه لا يجده، بل يجد المعروف به فقد خاض لجـــة الوصول، وهناك درجات ليست أقل مما ذكرنا، تجـــدها مفصـــلة في كتـــاب (مقامات الصوفية والتصوف)، على أننا هنا نؤثر الاختصار، فـــإن العبـــارة لا تشرحها، والكلام لا يوضحها، ولا يجعلها مفهومة، اللهم إلا من شـــرب مـــن العين، وسبقت له الحسنى، وبصره اليوم حديد، والحق أن الخيال مع خطورتـــه، قد يكشف المقصود لمن صحبوا العارفين، ومن أحب أن يعرفها، فليتـــدرج في هذه المنازل، إلى أن يصير من أهل المشاهدة بعين المشافهة، ومن الواصـــلين إلى العين دون الساعين للأثر، فإنهم –ولا شك– فقد جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد، أو يطلع عليه إلا واجد، مصطلم مؤهل للوراثـــة، وهكـــذا دواليك، واحد بعد واحد، فلذلك كان ما يشتمل عليه هذا العلـــم، ضـــحكة للمغفل، عبرة للمحصل، ومن سمعه فاشمأز منه، فليتهم نفسه، أو عقله، لعلـــهما لا يتناسب معهما، وكل ميسر لما خلق له.

الفصل الخامس: مجاهدة العارفين

قد يمسك العارف عن الغذاء مدة طويلة، ويدل عليه وجهان إجماليان ووجه تفصيلي. الأول: أن البدن قد يبقى وقت المرض أياماً طويلة بدون غذاء.

الثاني: أن شغول القلب بهمٍّ شديد، أو خوف عظيم قد تمر به الأيام، ولا يتذكر الغذاء.

وأما التفصيلي: وهو أن النفس إذا اشتد انجذابها إلى العالم العقلى صار ذلك عائقاً لها عن تدبير البدن، فوقفت الأفعال الطبيعية المنسوبة إلى النفس النباتية، وكان الواقع من التحلل ههنا دون الواقع في المرض، وكيف لا، والمرض الحار مسقط للقوة، وتتحلل بحرارته أجزاء المادة، وكثرة حركاته مضعفة للقوة، محللة للمادة؟ أما ههنا مقوية للقوة، غير محللة للحرارة، وسكونه البدني يقوي القوة، ولا يحلل المادة

فالعارف أولى بعدم الحاجة للغذاء، وإن تناوله فهو ليقوى سفين الروح وهو الجسد، على أمواج الروح وشعشعان المواجهة اللامع، من إشعاعات القدس في محيطه الكوني، تجلياً بالأسماء، فكيف إذا كان من الذات؟

وقد يطيق العارف فعلاً أو تحريكاً، يخرج عن وسع مثله، والسبب فيه أن الإنسان يكون له حال اعتداله قدر من القوة، ثم يعرض لنفسه خوف أو حزن فيعجز عنه، وقد يعرض له هيئة مقوية، فيقدر على أضعاف ما كان قادراً عليه حالة اعتداله، لما يعرض له في الغضب، أو المنافسة، أو الفرح، أو الطرب. فلا عجب لو عنت للعارف هزة كما يعرض عند الفرح، أو غشيته عزة كما يغشى عند المنافسة، فازدادت قوته، بل هذا يكون أعظم مما يكون عند الطرب والغضب، وكيف لا، وذلك بصريح الحق، ومبدأ القوى، وأصل الرحمة؟

العارف قد يخبر عن الغيب، ويدل على إمكانه وجوه إجمالية. أحدهما: لما رأينا الإنسان قد يعرف الغيب حال المنام لم يبعد أن يقع مثله في اليقظة، كما هو مدون في سير الأولياء الصالحين. وثانيهما: حصول ذلك لكثير بيننا في اليقظة، وحادثة عمر (يا سارية الجبل) وغيرها. وثالثها: أن الحوادث الأرضية مستندة إلى الحركات السماوية المستندة إلى النفس، التي هي عالمة بالكليات والجزئيات، فتلك النفس هي السبب لهذه الحوادث الأرضية، فيلزم من علمها بذاتها علمها بجميع هذه الحوادث، لما ثبت أن العلم بالسبب يقتضى العلم بالمسبب، ثم دلنا على أن النفس الناطقة جوهر مجرد، لها أن تنتقش بما في العالم النفساني من النفس، بحسب الاستعداد، وزوال الحائل، فلا يبعد أن يكون بعض الغيب ينتقش فيه من ذلك العالم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل السادس: الزاهد والعابد والعارف

المعرض عن متاع الدنيا هو الزاهد، والمواظب على العبادات هو العابد، والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً شروق نور الحق في سره هو العارف.

وقد يتركب بعض هذا من بعض.. الزهد عند غير العارف معاملة، كأنه يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة، وعند العارف تتره عما يشغل سره عن الحق، والعبادة عند غير العارف معاملة، كأنه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة، وعند العارف رياضة لهممه وقوى نفسه المتوهمة والمتخيلة ليحررها بالتعويد عن جانب الغرور إلى جناب الحق، فتصير مسالمة للسر الباطن حينما يتجلى له الحق، لا ينازعه، فيخلص السر إلى الشروق الساطع، ويصير ذلك ملكة مستقرة، كلما شاء السر اطلع على نور الحق، غير مزاحم من الهمم، بل تتفجر له العيون، فينهل ويكون بكليته منخرطاً في سلك القدس، بعد التجريد والفناء، والمحو والإثبات والتتريه.

العارف يريد الحق سبحانه لا لشيء غيره، ولا يؤثر شيئاً على عرفانه، ويعبده له سبحانه فقط، ولأنه مستحق للعبادة، ولأنها نسبه الشريف إليه، لا لرغبة أو رهبة، وإن كانتا، فيكون المرهوب منه، والمرغوب فيه هو المطلوب، وعند ذلك يكون الحق ليس الغاية، بل الواسطة، وهو دون مراتب العارفين، وعلى كل، فالمستحل وسط الحق معذور من وجه، فإنه لم يطعم لذة البهجة الإلهية فيستطعمها، إنما معارفه مع اللذات "المخدجة" (الناقصة) وقد جن إليها هو غافل عما وراءها، وما مثله بالقياس إلى العارفين، إلا مثل الصبيان بالقياس إلى المحنكين، فإنهم كما غفلوا عن طيبات يحرص عليها البالغون، واقتصرت بهم

المباشرة على طيبات اللعب، وصاروا يتعجبون من أهل الجد ازورارا عنها، عائقين لها، عاكفين على غيرها، كذلك من غض بصره عن مطالعته بهجة الحق، أغلق كفيه بما يليه من اللذات، فتركها في دنياه عن كره، وما تركها إلا وهو يستأجل أضعافها، والمستبصر بهداية القدس في شجون الإيثار، قد عرف اللذة الحقة، وولى وجهه سمتها، مترحماً على هذا المأخوذ عن رشده إلى ضده، وإن كان ما يتوخاه بكده مبذولاً له بحسب وعده.

الفصل السابع: درجات حركات همم العارفين

أول درجات حركات العارفين الإرادة، وهي الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى، فيتحرك سره إلى القدس، لينال من روح الاتصال، ثم إنه يحتاج إلى الرياضة، والرياضة موجهة إلى ثلاثة أغراض:

أولاً: تنحية ما دون الحق عن الإيثار، ويعين عليه الزهد الحقيقى.

ثانياً: تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة، لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى التوهمات المناسبة للأمر القدسي، فتصرفه عن التوهمات للواقع السفلى، ويعين عليه أشياء: العبارة المشفوعة بالفكرة، ثم ألحان الحكمة المستخدمة لقوى النفس، الموقعة لما يمر بها من الإلهام موقع القول من الأوهام، ثم نفثات الوعظ من العارف الذكي، بعبارة بليغة، ونغمة رخيمة، وسمت رشيد.

ثالثاً: تلطيف السر للتنبه، ويعين عليه الفكر اللطيف، والعشق العفيف، الذى تأمر فيه شمائل المعشوق، لا سلطان الشهوة.

فإذا بلغت الرياضة حداً ما، عنت له خلسات من اطلاع نور الحق عليه، يلتذ بها، كأنها بروق من لوامع الحق تومض، ثم تخفى رحمة به، وهي المسماة أوقاتاً، وكل وقت يكتنفه وجدان، وجد إليه، ووجد عليه، ثم إنه لتكثر عليه هذه الغواشي إذا أمعن في الارتياض، فكلما لمح شيئاً عاج منه إلى جانب القدس، فيكاد يرى الحق في كل شيء، ولعله إلى هذا الحق تستعلى عليه غواشيه، ويزول هو عن سكينته، ويتنبه جليسه لاستيفازه عن قراره، فإذا طالت الرياضة لم تستفزه غاشية، وهدي للتلبيس فيه، ثم إنه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة، فيصير المخطوف مالوفاً، والوميض شهابا بيناً، ويحصل له مفارقة مستقرة، كأنها صحبة مستمرة، ويستمتع فيها ببهجته، فإذا انقلب عنها

انقلب حيران أسفاً، ولعله إلى هذا الحد يظهر عليه ما به، فإذا تغلغل في هـــذه المفارقة قل ظهوره، فكان وهو غائب – حاضراً. وهو ظاعن – مقيماً، ولعله إلى هذا الحد تتسنى له المفارقة أحياناً، ثم يتدرج إلى أن تكون له متى شـــاء، ثم إنـــه ليتقدم هذه الرتبة فلا يتوقف أمره على مشيئته، بل كلما لا حظ شيئاً عـــبره، وإن لم تكن ملاحظته للإعتبار فيسنح له تصريح من عالم الخلق إلى عالم الحـــق، مستقر ويحتف حوله الغافلون، ثم إذا وصل إلى المقصود صار سره مرآة مجلوة، فحازى بها شطر الحق، وودرت عليه اللذات الروحية، وفرح بنفسه لما بها مـــن أثر الحق، فكان له نظر إلى الحق، ونظر إلى نفسه، وكان بعد متـــردداً، ثم إنـــه ليغيب عن نفسه، فيلحظ جناب القدس، وإن لحظ نفسه فمن حيث هي لاحظة، وهناك يحق الوصول، وعندها الالتفات إلى ما تتره عنه شغل، والاعتداد بما طوع النفس عجز، والتبجح بزينة اللذات من حيث هي لذات –وإن كان بـــالحق– تيه، والإقبال بالكلية على الحق خلاص.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثامن: ذكر العارفين

العارف من كان قلبه قبلة للسانه، والذاكر من استشعر حيـاء العبودية وهيبة الربوبية عند ذكره.

إذا علمت أن الله – تعالى – يعلم سر قلبك، ويرى ظاهر فعلك، ويسمع نجوى خواطرك، فاجتهد أن تغسل قلبك بالأحزان، وتوقد فيه نار الخوف منه، حتى يزول حجاب الغفلة عن قلبك، وعندها يكون ذكرك به مع ذكره لك. قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ (البقرة: ١٥٢). ثم اعلم أن ذكر الله أكبر قال تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

ذلك لأن ذكره لك وهو غني عنك، وذكرك له وأنت مفتقر إليه، عند ذلك يحصل الاطمئنان، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨). فتحصل على ميزتين في الذكر: اطمئنان القلب في ذكر الله، ووجلك منه – سبحانه– في حال الذكر، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ (الأنفال: ٢). والذكر هنا.. إما ذاكر ذكراً خالصاً بموافقة اللسان للقلب، حتى لا تقع العين على غير الله، وإما ذكر أوصاف لفناء الهمة عن الذكر، قال ﷺ: (سبحانك لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[1]

---

(١) [رواه مسلم في كتاب الصلاة الحديث ٢٢٢، وأبو داود في كتاب الصلاة الباب ١٤٨، وكتاب الوتر الباب ٥، والترمذي في كتاب الدعوات الباب ٧٥،١١٢، والنسائي في كتاب الطهارة الباب ١١٩، وكتاب التطبيق الباب ٤٧،٧١، وكتاب السهو الباب ٨٩، وكتاب قيام

ٱلْعَـــــارِفُونَ لَهُـــــمْ مَقَــــامٌ رَاقِ   لَـــمْ يُـــدْرَكَنْ بِٱلْعَقْـــلِ وَٱلْأَحْـــدَاقِ
شَهِدُوا جَمَالَ ٱللَّـهِ بِـــٱلْعَيْنِ ٱلَّتِـــي   وُهِبَـــتْ لَهُـــمْ مِـــنْ مُـــنْعِمٍ خَـــلَّاقِ
أَهْلُ ٱلشُّهُودِ هُمُـــو ٱلْكِـــرَامُ أَئِمَّـــةٌ   قَـــدْ جُمِّلُـــوا بِٱلْحُـــبِّ وَٱلْأَخْـــلَاقِ
أَسْرَارُهُمْ وُهِبَتْ لَهُـــمْ مِـــنْ رَبِّهِـــمْ   وَٱلْمُصْطَفَى ٱلْهَادِي لِرُوحِـــيَ سَـــاقِ
أَهْلُ ٱلْعَـــزَائِمِ أَنْجُـــمٌ قَـــدْ أَشْـــرَقَتْ   بِـــٱلْعِلْمِ وَٱلْأَحْـــوَالِ فِـــي ٱلْآفَـــاقِ
ٱلشَّرْعُ مَشْـــرَبُهُمْ وَوَجْـــهُ حَبِيـــبِهِمْ   فِي حَيْثُمَا كَٱلشَّمْسِ فِـــي ٱلْإِشْـــرَاقِ
أَهْلُ ٱلْعَـــزَائِمِ نُـــورُهُمْ مِـــنْ رَبِّهِـــمْ   فَـــازُوا بِحُـــبِّ ٱللَّـــهِ وَٱلْأَشْـــوَاقِ
أَحْـــوَالُهُمْ فَـــوْقَ ٱلْعُقُـــولِ لِأَنَّهُـــمْ   شَـــرِبُوا ٱلطَّهُـــورَ بِمُـــنْعِمٍ رَزَّاقِ
مِنْ لَحْظَةٍ يَرْقَـــى ٱلْمُرِيـــدُ مُشَـــاهِدًا   أَنْـــوَارَ خَيْـــرِ ٱلرُّسْـــلِ بِٱلْإِشْـــفَاقِ
خُصُّوا بِحُـــبِّ ٱلْمُصْـــطَفَىٰ وَبِقُرْبِـــهِ   بُشْـــرَىٰ لَهُـــمْ بِمَعِيَّـــةِ ٱلْأَخْـــلَاقِ
كَمْ مِنْ مُرِيدٍ شَاهَدَ ٱلْوَجْـــهَ ٱلْعَلِـــي   بِـــٱلرُّوحِ صِـــرْفًا فِـــي مَقَـــامٍ رَاقِ
بِٱلْمُصْطَفَىٰ نِلْنَا ٱلصَّفَا بُشْـــرَىٰ لَنَـــا   قَـــدْ لَاحَ لِـــلْأَرْوَاحِ فِـــي ٱلْآفَـــاقِ

الليل الباب ٥١، وابن ماجة في كتاب الإقامة الباب ١١٧، وكتاب الدعاء الباب ٣، وأحمد في الجزء الأول صفحة ٩٦،١١٨،١٥٠ والجزء السادس صفحة ٥٨،٢٠١].

الباب الخامس: في الذكر وأنواعه وروابطه

الفصل الأول: أنواع الذكر

ولما أن تفضل علينا سبحانه بهذا الفضل العظيم، فجعلنا من أمة من فضله على جميع الرسل، وأزال عنا الحرج والضيق، تفضل سبحانه فنادانا نداء القريب بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ (الأحزاب: ٤١-٤٤). الذكر إما بالقلب، وهو الذكرى، وإما باللسان وهو الذكر بكسر الذال، أو بضمها، فالذكر بالقلب أوله تذكر آلاء الله تعالى، ومشاهدة نعمه، ثم رعاية أحكامه شرعاً وقدراً، ثم مراقبة جلاله وعزته وعظمته، ثم مشاهدة أنوار صفاته، ثم الأدب بكمال الاتحاد برسول الله ﴿ﷺ﴾ تشبهاً به على قدر الاستطاعة، تحصيلاً للعلم بالله من الراسخين فيه، ومجاهدة للنفس، ثم الفناء عن الذكر بالمذكور – سبحانه وتعالى – وذكره للعبد، وبعد هذا المقام مقامات، جلت عن أن تكشفها العبارة، أو تلوح إليها الإشارة، من الإشراف على قدس العزة والجبروت، ومن مواجهة الوجه العلي، ومن الاصطلام بعد الفناء عن المقام: والذكر باللسان، والاسم منه ذكره، بكسر الذال أو بضمها، إما ترجمة عن القلب شهوداً، وهو مواجيد القلوب التي تترجمها الألسنة، بياناً لآيات الجمال والجلال، والبهاء والضياء والنور الرباني، والاسم منه ذكرى، أو تكرير جملة تامة كقول "لا إله إلا الله" مع رعاية المعنى، وهو ذكر أهل الرعاية أو تكريرها من غير فهم، وهو ذكر المبتدئين،

وهو لحفظ الوقت من الغفلة وخير الذكر قراءة القرآن في الصلاة، ثم تلاوته في غيرها مع التدبر.

أما تكرير اسم من أسماء الله تعالى، فإن كان الذاكر يلاحظ تمام الجملة بقلبه، بأن يقول بلسانه (الله) ويلاحظ أحد أو صمد، أو معط أو وهاب أو تواب، فهو ذكر بحسب الرعاية، وإن ذكر الاسم من غير رعاية، فهو ذكر للتواجد، فقد يحصل له الوجد، وقد لا يحصل، وقد يكون التواجد بحسب المقدم من الإخوان، وقد استحسن جماعة السماع فيه وكرهه آخرون، حتى تزكو نفوس الذاكرين، فيحسن سماع الحكمة بالصوت الحسن، فقد يحصل الوجد بعد التواجد فينتقل الذاكر من غفلة إلى حضوره، وينتقل من تواجد إلى وجد، وقد يرفعه الله – تعالى – من الوجد إلى الوجود.

الفصل الثانى: تحديد مقدار وميقات الأحكام الشرعية

إلا الذكر

إن الله سبحانه ما أمر بعمل من الخير إلا عده وحده، فأمر بالصلاة معدودة محدودة، وأمر بصيام شهر، وأمر بالحج عند الاستطاعة مرة في العمر، وأمر بزكاة المال في كل سنة مرة، وقدر ذلك، وأمر بالجهاد بشروط مخصوصة، ثم بين الذكر، فأمرنا به مطلقاً في كل أحوالنا وشئوننا، قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ (آل عمران: ١٩١). وقال سبحانه: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤١).

فنحن مطالبون بالذكر بعدد الأنفاس واللحظات، وقد شنع الله تعالى على أهل الغفلة والنسيان، وعلى الصامتين من غير تدبر ولا اعتبار.

الفصل الثالث: الذكر الكثير

معلوم أن الجوارح المجترحة ثمان معلومات، فمن ذكر باللسان وترك الذكر بغيره قصر، فلذكر الكثير ذكر جميع الجوارح، وذكر اللسان الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وتلاوة القرآن، والنصيحة، والإصلاح وتذكير الخلق أيام الله تعالى، وقد بينت هذا الموضوع مستوفى فيما سبق من الكتب.

ولما أن أمرنا سبحانه بالذكر الكثير، خص نوعاً من أنواع الذكر، ليبين لنا – سبحانه وتعالى – خصوصيته، فقال سبحانه: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٤٢). والتسبيح بكرة صلاة الصبح، وأصيلاً صلاة العصر، وهما الفرضان الثقيلان على أهل الغفلة، وجائز أن يكون المعنى إذا ذكرت القلوب بالذكرى، فأشرق القلب بنور الحضور مع المذكور سبحانه فسبحوا الله، أي قولوا سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تنزيهاً لله، وعلواً له سبحانه، وثناء عليه، لأنه سبحانه تفضل على العبد بالحضور، وأكرمه بالشهود، وقول: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

لا يمنع عمارة جميع الأوقات بالتسبيح، لأن ذكر الطرفين يعين الوسط.

الفصل الرابع: الجواذب إلى الذكر

يجذب إلى الذكر الحب، وليس أحد أولى من الحب إلا الله تعالى، ولا أحق بأن يذكر إلا هو – سبحانه –؛ لأنه سبحانه هو الذى تفضل علينا بالإيجاد والإمداد، فكل مالا بدلنا منه مما به قوام حياتنا، وحفظ عافيتنا، منه سبحانه فضلاً، ولو أننا نظرنا بالفكرة في أنفسنا، وفي الآفاق لتحققنا أن صرف جميع أنفاسنا في ذكره قليل، في جانب نفس نتنفسه، فكيف إذا ساحت أنفسنا في فسيح ملكوته، فتحققنا أنه سبحانه هو الذى خلقنا من العدم في أحسن تقويم، وسخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، ومنحنا الإيمان به، ووفقنا لما يحبه ويرضاه، لديها نرى طاعتنا نعمة، يجب علينا بها الشكر له سبحانه، فلا يسعنا إلا العجز عن حقوق شكره وذكره.

الفصل الخامس: آداب الذكر

الذاكر جليس الله تعالى، قال ﷺ: قال الله تعالى: ﴿أنا جليس الذاكرين﴾ (رواه الديلمي عن السيدة عائشة رضى الله عنها مرفوعاً، والبيهقي في الشعب عن أبي بن كعب، ورواه الحاكم وصححه). والمسلم لا يجهل الأدب اللازم لكل جليس، فمن أنواع الذكر ما تجب فيه الطهارة الجسمانية، كالصلاة، وقـــراءة القرآن، والطواف بالكعبة، ومنه ما تستحب فيه الطهارة، كالتسبيح، والتهليل، والتحميد، والتكبير، ومنه ما لا تجب فيه الطهارة، فإن الله طالبنا بالذكر في كل أوقاتنا وأحوالنا، كتذكره سبحانه وتعالى عند مقتضيات الشئون، فمن الذاكرين من لا يغفل نفسا، فيكون بين ذاكر بقلبه ولسانه وجوارحه، أو ذاكـــر بقلبـــه فقط، فيستغرق أنفاسه بين سياحة ملكوتيه، أو إشراف على قدس رب البريـــة، أو تذكر آيات الله في نفسه وفي الآفاق، أو شهود جماله في مظاهره الجلية.

الفصل السادس: روابط الذكر

الذاكر إما آنس بالمذكور سبحانه على بساط المؤانسة، أو حاضر القلب معه سبحانه بالذكرى، أو غائب عن الخلق فرار إلى الحق، أو مبتهج بالفكرة في جماله العلي، أو مرتل لكلامه سبحانه بالحضور، مع المخاطبة والتدبر في خلوته، أو مكرر اسمه العلى بلسانه ترجمة عن قلبه. وهذه الأنواع من الذكر لا بد لها من رابطة قلبية، تربط الذاكر بالمرشد الكامل، الذي هو صورة رسول الله في كل زمان، وتلك الرابطة هي سر الوصول إلى الله تعالى ورسوله عليه ﴿ﷺ﴾. ومتى حرم القلب معنى من تلك المعاني، فالواجب على المسلم أن يسارع إلى طبيب القلوب، العالم الربانى، ليعالجه حتى تعود صحته الروحانية، فإن فقد الطبيب وجب عليه مجاهدة نفسه، بالمحافظة على آداب الشريعة التي لا تخفى على مسلم، ولا يرتبط إلا بمن كان مستقيماً. قال ﴿ﷺ﴾: "اتقوا أئمتكم فإنهم رسلكم فيما بينكم وبين ربكم" وقد انتشر الأدعياء في هذا الزمن، فترى المدعى يجهل نفسه، ويطيع حسه، ولا يعلم الضروري من الدين، ويتقن ما به يخدع المسلمين، وهو وسيلة الشيطان، فعلى السالك أن يطلب العلم ولو بالصين، فإن أطباء القلوب قليلون، وإن تساهل المسلم في كل شيء فلا يتساهل في نجاة نفسه بالبحث عن المرشد الكامل. قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

(الأحزاب: ٤٤). قوله تعالى: ﴿يُصَلِّى﴾

بلفظ الفعل المضارع بشرى لنا جماعة المسلمين أن صلاته سبحانه دائمة مستمرة في كل زمان، مهما تعاقبت الدهور، وتوالت العصور، فأهل الإيمان بالله،

الذاكرون الله كثيراً في معية رسول الله ﴿ ﴾ من بدء الرسالة إلى يوم القيامة، لم يغب عنهم ﴿ ﴾ نفسًا، ولو غابوا عنه لاحترقوا، وهم نور الله ورحمته لجماعة المسلمين، في كل زمان ومكان، والصورة الكاملة لرسول الله ﴿ ﴾ في كل عصر وأوان، والصلاة من الله تعالى تنزله -جَلَّ جَلَالُهُ- بالتواب، والعفو، والغفور، والقريب، والمجيب، والولى، والمنعم، والمتفضل، وغيرها من أسماء الجمال والحفظ والسلامة، وصلاة الملائكة استغفارهم لنا ودعاؤهم لنا بالخير والمغفرة، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (غافر: ٧). وتنزلهم الإلهام والبشائر لنا.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾

فيه من البشائر ما في ﴿يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾ والإخراج أنواع: يخرج سبحانه من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، ومن المعاصي إلى الطاعات، ومن الجهل إلى العلم، ومن العلم إلى الذوق، ومن الذوق إلى الشهود، ومن الشهود بعين اليقين إلى حق اليقين، ومنه إلى المقامات التي لا يشار غليها إلى حيث الفرار مما سوى الله، ومن سواه إلى الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ أي: ثبتت رحمته من البدء بالمؤمنين، ودامت لهم إلى أبد الآبدين، والمؤمنون هم الذين سبقت لهم الحسنى من الله تعالى بتصديق رسوله ﴿ ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ والتحية من الحياة أي: أحياهم بتحيته سبحانه إياهم منه لهم في سلامة، حياة الأنس به في حظوة المواجهة، على بساط المنادمة، وهم المقربون. أو تحيتهم من الملائكة عند الله تعالى، بشرى بسلامتهم حتى من العتاب بالفوز بالحياة الدائمة، في بساتين الفردوس والمسرات

الباقية، وهم الأبرار أهل اليمين. وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٤). فقوله: أعد أي: أن هذا الأجر موجود الآن، فثبت وجود الجنة بهذه الآية، والأجر الكريم هو الجلوس على منابر من نور، أمام وجه الله تعالى للمقربين، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، أو التصريف المطلق في جنة الفردوس، بحجة قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ (ق: ٣٥). للأبرار. والأجر الكريم هو الخير العظيم، الذي يكرم من ناله أعظم الإكرام.

إِذَا ذَكَرْنَا بِهِ لَاحَ ٱلضِّيَا ٱلْعَالِي ... وَٱلذِّكْرُ يَجْذِبُنَا مِنَّا إِلَى ٱلْوَالِي
ٱلذِّكْرُ رَاحُ طَهُورٍ فِيهِ يَذْكُرُنَا ... رَبٌّ قَرِيبٌ مُجِيبٌ حَالَ إِيصَالِ
مَوْلَايَ تَذْكُرُنَا فِي ٱلذِّكْرِ تُشْهِدُنَا ... وَجْهًا جَمِيلاً يُرِينَا غَيْبَ إِجْمَالِ
يَاذِكْرُ أَشْهَدْتَنَا ٱلْغَيْبَ ٱلْمَصُونَ أَرَىٰ ... رَوْضَ ٱلْجَمَالِ بِحِلِّي أَوْ بِتَرْحَالِي
ٱلْوَجْهُ وَاجَهَنِي فِي ٱلذِّكْرِ غَيَّبَنِي ... عَنْ رُتْبَتِي أَوَّلاً مِنْ طِينِ صَلْصَالِ
يَاذِكْرُ أَنْتَ مُدَامُ ٱلرُّوحِ بَهْجَتُهَا ... جَمَّلْتَنِي بِٱلْمَعَانِي نِلْتُ آمَالِي
قَدْ كُنْتُ فِي غَفْلَةٍ وَٱلذِّكْرُ أَيْقَظَنِي ... حَتَّىٰ شَهِدْتُ جَمَالَ ٱلْمُنْعِمِ ٱلْعَالِي
تَرْجَمْتُ عَنْ غَامِضِ ٱلْأَسْرَارِ أُظْهِرُهَا ... لِلْعَالِمِينَ وَلِلْجُهَّالِ أَمْثَالِي
خَلِّ ٱلْمَلَامَ فَإِنَّ ٱللَّهَ مُقْتَدِرٌ ... يُعْطِي ٱلْوَلَايَةَ لِلسَّارِي وَلِلتَّالِي
قَدْ أَكْرَمَ ٱللَّهُ أَهْلَ ٱلْعَجْزِ عَلَّمَهُمْ ... أَسْرَارَ تَوْحِيدِهِ بِٱلْحَالِ وَٱلْقَالِ
ٱلذِّكْرُ نُورٌ مِنَ ٱلْمَذْكُورِ يَمْنَحُهُ ... أَهْلَ ٱلْمَحَبَّةِ مَنْ فَازُوا بِإِقْبَالِ
ٱلذِّكْرُ يَاإِخْوَتِي مِنْ سَابِقِ ٱلْحُسْنَىٰ ... إِنْ تَذْكُرُوا ٱللَّهَ يَذْكُرْكُمْ مَعَ ٱلْآلِ
ٱلذِّكْرُ مَا ٱلذِّكْرُ جَذَّابٌ لِحَضْرَةِ مَنْ ... لَنَا تَجَلَّىٰ بِحَالِ ٱلذِّكْرِ فِي ٱلْحَالِ
إِنَّا ذَكَرْنَاكَ فَٱذْكُرْنَا وَأَشْهِدْنَا ... جَمَالَ وَجْهِكَ بِٱلْإِحْسَانِ يَاوَالِ

الباب السادس: عبارات أئمة الصوفية في التوحيد

الفصل الأول: التوحيد هو تمييز الحادث من القديم

يروى أن الجنيد قال: التوحيد هو فرق القديم من الحادث في الوقت. أعني: أنه لا يلزمك اعتبار القديم أن يكون محلا للحادث، ولا الحادث أن يكون محلاً للقديم، ويلزمك أن تعرف أن الله قديم، وأنك حادث وأنه لا شيء منك متصل به، وأن لا شيء من صفاته مزدوج بك، وأنه لا جنسية بين القديم والحادث. هذا الرأي مضاد لمذهب من قال بقدم الروح، فإذا اعتقدنا أن القديم نزل إلى الحادث، أو أن الحادث اتصل بالقديم، لم يبق برهان على قدم الله، وعلى وجود الكون، وهذا يذهب بنا إلى مذهب الدهريين.. في كل أعمال الحادث براهين ناطقة على توحيد الله وآيات دالة على قهر الله، وعلامات توضح قدمه سبحانه، ولكن الناس شديدوا الغفلة في الرغبة فيه وحده، أو الاكتفاء بذكره.

الفصل الثانى: التفريد والتوحيد

قال الحسين بن منصور الحلاج: أول قدم في التوحيد هو فناء التفريد؛ لأن التفريد هو النطق بأن الواحد انفصل عن الآفاق، بينما التوحيد هو إثبات وحدة الشيء لذلك، ففي الفردانية لا يمكن إثبات شيء غير الله، وهذه الصفة ربما تنطبق على ما هو غيره، لكن في الوحدانية لا يمكن إثبات غيره، والوحدانية ربما لا تكون لشيء غيره، لذلك فأول قدم في التوحيد هو إنكار شريك الله، ونفي المزاج، لأن المزاج في طريق الله هو بحثك عن الطريق بسراج.

الفصل الثالث: أصول علم التوحيد

قال الحصري: أصولنا في التوحيد خمسة: إزالة الحدث وإثبات القدم، وهجر العادة، والعزلة عن الإخوان، ونسيان ما هو معلوم وغير معلوم

١. فإزالة الحدث تشتمل على إنكار أن الحادث له اتصال بالتوحيد، أو أن الحادث يمكنه أن يصل إلى حقيقته المقدسة.

٢. وإثبات القدم هو في كمال اعتقادك بوجود الله، وكما بينت لك سابقاً في قول الجنيد.

٣. وهجر العادة للسالكين بعد عن ملاهى النفس الدنية، ورسوم هذه الدنيا، وللكاملين بعد عن المقامات والأحوال والكرامات.

٤. والعزلة عن الإخوان أعنى به الابتعاد عن الاجتماع بالناس، والتوجه إلى الاجتماع بالله، حيث أن الفكر في كل ما هو غير عن الله حجاب ونقص، وكلما حصر الإنسان فكره في الاجتماع بغير الحق، كلما ازداد حجاباً عنه؛ لأنه من المتفق عليه أن التوحيد هو جمع الهمم، بينما أن الاكتفاء بغير الله هو علامة على تفرقة الهمم.

٥. ونسيان الأشياء المعلومة والغير معلومة يعني به توحيد ذلك الشيء، لأن التوحيد ينكر ما يثبته علم الناس، وكل ما أثبته جهلهم به ليس إلا بخلاف ما يعلمون، لأن الجهل ليس توحيداً، ومعرفة حقيقة التوحيد لا يمكن نيلها بدون إنكار التصرف الشخصي، الذي يتكون منه المعرفة والجهل.

قال بعضهم: بينما كان الحصري يتكلم في مجمع، غفلت عيناي فرايت وأنا نائم أن ملكين نزلاً من السماء، وصارا يستمعان لمذاكرته، فقال أحدهما للآخر: كل

ما يقوله هذا الرجل هو علم التوحيد وليس بعين التوحيد، فلما اســـتيقظت إذا بالحصري يعبر عن التوحيد فنظر إليَّ وقال: فلان من المستحيل أن نتكلم علـــى التوحيد إلا علماً.

الفصل الرابع: التوحيد هو فناء صفات الآدمية

يروي أن الجنيد قال: التوحيد هو أن يكون الإنسان كشخص بين يدي الله، تجري عليه أحكامه كما شاء في سابق علمه، وأن يكون الإنسان غارقاً في بحار التوحيد، فانياُ عن نفسه، وميتاً في دعاء الناس له، وإجابتهم إليه، مستغرقاً بحقيقة التوحيد في معنى القرب، مفقوداً عن نفسه وحواسه؛ لأن الله يقوم فيه بما أرداه له، حتى تكون آخر أحواله أولها، ويعود إلى ما كان عليه ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ (الأنبياء: ١٠٤). كل ذلك يعني به أن الموحد ليس له مراد دون مراد الله في توحيد الله، لا اعتبار لوجوده، حتى يكون ذرة كما كان في ماضي قدمه حيث ظهرت دلائل التوحيد، وأجاب الله عنه السؤال الذى سأله نفسه، وهذه الذرة كانت محل كلامه، مثل هذا الإنسان لا يأنس به الناس حتى يدعوه إلى أي شيء وليس له صحبة مع أي إنسان حتى يجيب دعوهم. هذا القول يشير إلى فناء الصفات الآدمية، وكمال التسليم لله في الحالة التي يكون فيها الإنسان مغلوباً بكشف جلال الله، وبذلك يكون الإنسان آلة مسخرة، ومادة لطيفة لا تشعر بأي شيء، ويكون جسده خزانة لأسرار الله تعالى، تنسب إليه أقواله وأحكامه، غير صاغ إلى أي شيء غيره، باقياً تحت أحكام الشرع إلى النهاية، وذلك لتأييد برهان الله سبحانه وتعالى هذا مصدقاً لعمل رسول الله ﴿﴾ حينما أراد في ليلة المعراج، عندما أسرى به إلى مقام القرب، أن تمحى رسوم جسمه الشريف، وتذوب شخصيته لكن سبحانه وتعالى أراد أن يثبت برهانه، فأمر رسوله أن يبقى في الحالة التي كان عليها، وبذلك تقوى جسمه الشريف، وشاهد وجود الله سبحانه وتعالى من وجوده العدمي، فقال: ﴿إنى

لست كأحدكم إني أبيت عند ربي فيطعمني ويسقيني﴾[1]. وكما قال ﴿ ﴾: "أنا مع ربي في حال لا يقدر عليه الكروبيون والأنبياء والمرسلون" [رواه الترمذي في شمائله وابن راهوية في مسنده عن سيدنا علي عليه السلام كذا في اللالئ وزاد فيهــا، ورواه الخطيب بسند قال فيه الحافظ الدمياطي إنه على رسم الصحيح].

---

(١) [رواه البخاري في كتاب التمني الباب ٩، وكتاب الصوم الباب ٢٠،٤٨،٤٩،٥٠ وكتاب الحدود الباب ٤٢، وكتاب الاعتصام الباب ٥، ومسلم في كتاب الصيام الحديث ٥٧،٥٨، ومالك في الموطأ في كتاب الصيام الحديث ٥٨، وأحمد في الجزء الثالث صفحة ٨ والجزء السادس صفحة ١٢٦]

الفصل الخامس: الذات تعرف بالعلم ولا تدرك

يروى أن سهل بن عبد الله قال: التوحيد هو أن تشهد أن ذات الله إنما تعرف بالعلم، وأنها لا تدرك ولا تشهد للعين في هذه الدنيا، لكنها موجودة بحقيقة الإيمان، غير محدودة ولا مدركة، ولا تحل الأشياء، وأنه يرى في الدار الآخرة ظاهراً وباطناً في ملكه وسلطانه، وأن الناس محجوبون عن معرفة حقيقة ذاته، وأن قلوبهم تعرفه، وأن عقولهم لا تصل إليه، وأن المؤمنين يشاهدون جماله بعيونهم الروحانية، بدون إدراك حقيقته. هذا القول يشمل كل أصول التوحيد.

الفصل السادس: العجز عن الإدراك إدراك

قال الجنيد إن أعلى كلمة في التوحيد هي ما قالها أبو بكر ﵁: (سبحان الله الذى لم يتعرف إلى خلقه بأي وسيلة إلا بالعجز عن معرفته) وقد أخطأ كثيرون فيما عني به سيدنا أبو بكر في هذه الكلمات، وظنوا أن العجز في نيل المعرفة هو كالقول بأنه لا بينة، ولا مناقضة لوجود إله واحد، وهذا خطأ محض؛ لأن العجز يشير إلى حالة موجودة، وليست إلى حالة معدومة، مثال ذلك الإنسان الميت ليس غير مؤهل للحياة، لكنه لا يكون حياً في حال موته، والإنسان الأعمى ليس غير مؤهل للنظر، لكنه لا يرى في حال عمائه، كذلك فالعارف ليس غير مؤهل للمعرفة، ما دامت المعرفة موجودة، لأنه في هذه الحالة تشبه معرفته النظر العقلي، فقول أبي بكر يمكن أن يتصل بمذهب أبي سهل الصعلوكي، وأبي علي الدقاق، الذين يثبتون أن المعرفة تنال في أول الأمر، حتى تكون في النهاية بديهية – صاحب المعرفة الضرورية يصير مضطراً، أو غير قادر على تركها، أو استقرارها لنفسه، وبناء على قول سيدنا أبي بكر – ﵁ – وأرضاه فالتوحيد هو حكم الله في قلوب عباده.

الفصل السابع: التوحيد يحجب الموحد عن جمال الوحدة

قال الشبلي: التوحيد يحجب الموحد عن جمال الوحـــدة، لأنـــه يقـــال إن التوحيد هو حكم الإنسان وحكم الإنسان لا يكون كشـــفاً لجمـــال الله، وفى حقيقة الكشف يكون الشيء الذي لا يوجب الكشف حجاباً – الإنسان بكل أوصافه هو غير عن الله؛ لأنه إذا كانت صفاته ربانية، كان هو ربانياً، وبـــذلك يكون الموحد والتوحيد، فإذا منعت الطالب لله أي صفة مـــن فنـــاء نفســـه في التوحيد، فهو محجوب بتلك الصفة، وطالما يكون محجوباً ليس بموحد، لأن كل ما خلا الله فهو باطل، هذا فقه "لا إله إلا الله" هذا، وقد عـــني أهـــل المعرفـــة بتوضيح واسع العبارات التي يعرف بها التوحيد فبعضهم قال: إنه فناء لا يمكن الوصول إليه حقيقة إلا بوجود الصفات، والبعض قال: إنه لا توجد نسب أبداً إلا الفناء، وموضوع الجمع والفرق يمكن أن يطبق في هذا الموضوع حتى يفهم.

الفصل الثامن: التوحيد عند الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم قدس الله سره

ولا شك عندي أن التوحيد هو سر يكاشف الله به عباده، وأنه لا يمكن التعبير عنه بالكلام، وأنه أدق من أن يشار إليه بأكمل العبارات، وكل ما قرره المشايخ من العبارات والاصطلاحات، وكل من استعملها، هو غير عن الله، وإثبات ما هو غير عن الله في التوحيد هو إثبات للشرك.

مَشْهَدُ ٱلتَّوْحِيدِ مِعْرَاجُ ٱلْوِصَالْ   بَدْؤُهُ ٱلإِشْرَاقُ وَٱلْخَتْمُ ٱتِّصَالْ
وَٱلْفِرَارُ مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ ٱلَّتِي   سَتَّرَتْنِي عَنْ كَبِيرٍ مُتَعَالْ
مَشْهَدُ ٱلتَّوْحِيدِ فِي حَالِ ٱلصَّفَا   قَدْ مَحَا ٱلْحُجْبَ وَأَفْيَاءَ ٱلظِّلَالْ
وَحْدَةُ ٱلأَفْعَالِ بَدْءُ سُلُوكِهِ   نَيْلُ حُسْنِ ٱلْحَالِ بَلْ حُسْنِ ٱلْمَآلْ
ثُمَّ تَفْرِيدِي لَهُ فِي قَصْدِهِ   وَٱلتَّجَلِّي لِي بِهِ حَالٌ فَحَالْ
بَعْدَ هَٰذَا مَشْهَدٌ لِمُشَاهِدٍ   فِيهِ تَوْحِيدِي بَقَاءٌ لاَ زَوَالْ
بَعْدَ هَٰذَا أُخْبِتَ ٱلْقَلْبُ فَلاَ   يَشْهَدُ ٱلرَّسْمَ بِعَيْنٍ أَوْ مِثَالْ
تَنْمَحِي آثَارُهُ بِضِيَائِهِ   دُكَّتِ ٱلطُّورُ وَأُصْعِقَتِ ٱلرِّجَالْ
وَٱلتَّجَلِّي سَتَّرَ ٱلآيَاتِ عَنْ   كُلِّ قَلْبٍ مُطْمَئِنٍّ بِٱلْجَمَالْ
بَعْدَهَا مَجْلَى ٱلْكَمَالِ وَلاَ أَنَا   شَمْسُ قُدْسٍ قَدْ يَلُوحُ بِلاَ زَوَالْ
وَجْهُهُ يُجْلَىٰ لِرُوحِي جَهْرَةً   بِٱلْيَقِينِ ٱلْحَقِّ لاَ رَمْزِ ٱلْخَيَالْ
بِٱلتَّنَزُّلِ فِي مَقَامِ ٱلإِجْتِلاَ   رَبِّيَ أَنَا فِي ٱلرَّسْمِ أَمْ رَسْمِي مُحَالْ؟!
إِنْ أَكُنْ فِي ٱلرَّسْمِ كَيْفَ أَرَىٰ بِهِ؟!   ذَا عَجِيبٌ حَالَتِي فَوْقَ ٱلْمَقَالْ
فِي مُحِيطِ ٱلْكَوْنِ يَظْهَرُ بِي ٱلضِّيَا   أَيْنَ كَوْنِي فِي ٱتِّحَادِي وَٱلْوِصَالْ؟!

كَـــوْنِي ٱلْمِـــرْآةُ فِيهَـــا صُـــورَةٌ   سَـــتَّرَتْهَا بِٱلْجَمَـــالِ ٱلْمُتَـــوَالْ
بِٱلْجَمَـــالِ ٱسْـــتَغْرَقَتْ حَتَّـــىٰ بَـــدَا   ظَاهِرًا لِلْعَيْنِ مِـــنْ غَـــيْرِ ٱنْفِصَـــالْ
مَـــنْ أَنَـــا وَٱلْوَجْـــهُ حَـــوْلِي نُـــورُهُ   سَتَّرَ ٱلآثَارَ مِـــنْ قَـــبْلِ ٱنْتِقَـــالْ؟!
يَاضِـــيَاءً مُشْـــرِقًا فِـــي وِجْهَتِـــي   فِيكَ إِحْرَامِي لَـــدَىٰ أَرْضِ ٱلْحَـــلاَلْ
وَٱلْفِـــرَارُ إِلَيْـــكَ مِنِّـــي بُغْيَتِـــي   وَٱلْحِجَابُ ٱلْبُعْـــدُ فَاتِحَـــةُ ٱلْجِـــدَالْ
سَـــلِّمِي يَـــانَفْسُ تَلْقَـــيْ رِفْعَـــةً   تَدْخُلِينَ ٱلْقُدْسَ فِي حُلَـــلِ ٱلْوِصَـــالْ

الباب السابع: عقيدة الصوفية في الإيمان

الفصل الأول: تعريف الإيمان

قال رسول الله ﷺ: "الإيمان بالله وملائكته وكتبه" [رواه النسائى أبى هريرة وأبى ذر رضى الله عنهما].

الإيمان اصطلاحاً هو التصديق، أما بخصوص أصوله المطابقة للشرع الشريف فله مواضيع هامة، واعتراضات كبرى، فالمعتزلة يتمسكون بأن الإيمان يشتمل على أعمال العبادة – علمي وعملي – ولذلك فإنهم يقولون: إن المعصية تخرج الإنسان من دائرة الإيمان وكذلك الخارجة الذين ينسبون الإنسان إلى الكفر على عمل معصية، وهم على مثل هذا الزعم، والبعض يثبتون أن الإيمان الإقرار، ليس إلا إقراراً قولياً والبعض يقولون عنه: إنه ليس إلا معرفة الله تعالى. وبعض أهل السنة يثبتون أنه هو التحقيق بعينه. وقد كتبت كتاباً خاصاً بهذا الموضوع، ولكن مقصدى هنا أن أشرح عقيدة الصوفية فيه، فهم ينقسمون في هذا الموضوع كما انقسم فيه الشرعيون من أهل هذين الطبقتين.

الفصل الثانى: عقيدة الصوفية

أولاً: عقيدة الفريق الأول: فبعضهم مثل الفضيل بن عياض، وبشر الحافى، وخير النساج، وسمنون المحب، وأبو حمزة البغـــدادى، ومحمـــد بـــن جريـــرى، وكثيرون من غيرهم يقولون: إن الإيمان هو إقرار لفظي، وتحقيق وأعمال.

ثانياً: عقيدة الفريق الثاني من الصوفية: لكن غيرهم مثل إبراهيم بن أدهم، وذو النون المصرى، وأبو يزيد البسطامى، وأبو سليمان الـــدارانى، والحـــارس المحاسبى، والجنيد، وسهل بن عبد الله التسترى، وشقيق البلخى، وحاتم الأصم، ومحمد بن الفضيل البلخى، وكثيرين غيرهم يقولون بأن الإيمان إقـــرار لفظـــى وتحقيق.

الفصل الثالث: عقيدة الشرعيين

وبعض المتشرعيين مثل مالك، والشافعى، وأحمد بن حنبـــل، متمســـكون بالرأى الأول، بينما أبو حنيفة، وحسين بن فضل البلخى وأتباع أبو حنيفة مثل محمد بن الحسن، وداود الطائى، وأبو يوسف يؤيدون القول الثانى. والاختلاف بينهم لفظى محض، وخلو من المعنى، وسأوضح لك ذلك حتى لا يتهم إنســـان بخروجه عن محجة الإيمان، لتمسكه برأى دون آخر.

الفصل الرابع: إثبات أن الإختلاف بين الفريقين لفظى محض

إعلم أن جماعة المسلمين والصوفية متفقون على أن الإيمان له أصل وفرع، والأصل هو التحقيق في القلب، والفرع هو ملاحظة الأمر، والعرب يستعملون فيما بينهم اسم الأصل للفرع بطريق الاستعارة، كقولهم عن ضوء الشمس أنه الشمس، وبهذا المعنى، فأهل الطبقة الأولى المذكورة آنفاً، يطبقون اسم الإيمان على الطاعة التي يحفظ بها الإنسان نفسه من العقاب الآجل، فالعقيدة مع عدم أداء الأوامر الربانية لا يوجب الإيمان، وحيث إن الإيمان هو مبني على الطاعة، وأن الطاعة مع العقيدة والإقرار القولى هما سبب النجاة، وليست الطاعة، فهم يقولون الطاعة لا معنى لها بدون المعرفة، وأن العارف الذي ينقصه الطاعة سيكون من الناجين، ولو أنه يكون مرتكناً على إرادة الله، إن شاء عفا عنه بفضله وبشفاعة رسوله ﴿ﷺ﴾، أو عوقب على قدر معصيته، ويخرج من النار إلى الجنة، وحيث إن أهل المعرفة مع معصيتهم لا يخلدون في النار بسبب معرفتهم، بينما الكادحون بغير معرفة لا يدخلون الجنة، ظهر في هذا أن الطاعة ليست سبباً للنجاة، وقد قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ وآله﴾: "لن يدخل الجنة أحدكم بعمله"(١)

(١) [رواه البخارى في الرقاق الباب ١٨، وكتاب المرضى الباب ١٩، ومسلم في كتاب المنافقين الحديث٧٧، وكتاب التوبة الحديث ٧١-٧٨، وابن ماجة في كتاب الزهد الباب ٢٠، والدارمى في كتاب الرقاق الباب ٢٤، وأحمد في الجزء الثانى صفحة ٢٣٥، ٢٥٦، ٢٦٤، ٣١٩، ٣٢٦، ٣٤٤، ٣٨٥، ٣٩٠، ٤٥١، ٤٦٥، ٤٦٩، ٤٧٣، ٤٨٢، ٤٨٨،

الفصل الخامس: إجماع المسلمين على الإيمان

الحقيقة التي لا جدال فيها بين المسلمين، هي أن الإيمـان هـو المعرفـة، والإقرار، وقبول الأعمال.

فكل من عرف الله يعرفه بأحد صفاته، وأكمل صفاته – سبحانه – علـى ثلاثة أنواع: أوصاف متصلة بجمالهن وجلاله، كماله، فكماله لا ينالـه إلا مـن ثبت كمالهم، وانتفى نقصهم، وبقى أهل الجمال والجلال، فمن كان برهانـه في معرفته جمال الله تعالى فهم المؤهلون لمشاهدته، ومن كان برهانهم هـو جلالـه فأولئك هم الذين يبغضون صفاقم، وانعقدت قلوبهم على الرغبة، أما الشـوق فهو ثمر العشق أو المحبة، وكذلك كره الصفات الآدمية؛ لأن رفع الحجاب عن الصفات الآدمية هو عين حقيقة المحبة، لذلك فالإيمان والمعرفة هنا المحبة، والطاعة علامة عليها. كل من أنكر ذلك أهمل أحكام الله تعالى، ولا علم لـه بالمعرفـة، وهذا الخطأ منتشر بين طلاب الصوفية في عصرنا هذا، وبعض أهل الإلحاد ممـن شاهدوا كمال أحوالهم يجاورونهم في هذه الدرجة العالية، ويقلـدونهم فيهـا، ويقولون إن التكاليف تكون قبل التعريف فإذا وصلت إلى معرفته تحولت عنك التكاليف الجسيمة للطاعة، ولكنهم مخطئون، لكني أقول إنك متى عرفته امـتلأ قلبك بالشوق والولاء، وصار حكمه في نظرك أجل مما كان قبلاً، وإني أقر بـأن الإنسان التقي يبلغ درجة يتخلص بها من عناء التكليف، وذلك بنمو التوفيـق الإلهي، حتى يؤدى ما هو تعب للغير بلا تعب لنفسه، لكن النتيجة لا يمكـن أن يتحصل عليها بغير الشوق المحرق، الذى ينتج الوله.

٤٩٥، ٥٠٣، ٥٠٩، ٥١٤، ٥١٩، ٥٢٤، ٥٣٧. والجزء الثالث صفحة ٥٢، ٣٣٧، ٣٦٢، ٣٩٤، والجزء السادس صفحة ١٢٥.

الفصل السادس: الفرق بين مذهب الجبر والاختيار والحشوية وبين مذهب التوحيد

والبعض يقولون: إن الإيمان إنما يأتى بالكلية عن الله، والبعض يقولون: إنه إنما يصدر عن الإنسان، وهذا كان لجدال كبير حدث بين أهل ما بين النهرين، فإثبات أن الإيمان إنما يأتى كلية عن الله هو القول بالجبر، لأنه يثبت أن الإنسان ليس له اختيار، ومن قال إنه يصدر من الانسان فــان ذلــك اختيــارى، لأن الإنسان لا يعرف الله تعالى إلا بالعلم الذى يمنحه إياه، ومذهب التوحيد هو أقل من الجبر، وأرقى من الاختيار، والأولى أن يقال إن الإيمان – حقيقة– هو عمل الإنسان مصحوباً بتوفيق الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ (الأنعــــام: ١٢٥).

وعلى هذا الأصل، فالميل للاعتقاد هو توفيق الله تعالى، أما الاعتقاد فهــو عمل الإنسان، وعلامات الاعتقاد هي في القلب، وذلك بشدة تمسكه للتوحيد، وفي العين بامتناعها عن المحرم نظراً، والنظر بإمعان في الآيات وفي الأذن بسماع كلمته، وفي البطن بخلوها من المحرم شرعاً، وفي اللسان بالتصديق. هذا ومن قال بأن الإيمان يصدر عن الله – تعالى – يثبت بأن المعرفة والإيمان قد يزيد وينقص الذي أجمع على بطلانه أكمل؛ لأنه لو كان حقاً، لكان موضوع المعرفــة محــلا للنقصان والزيادة، وعلى ذلك فالزيادة والنقصان يلزم أن تكونا في الفرع الذي

هو الحكم، والمتفق عليه عاماً هو أن الطاعة قد تزيد وتنقص، وهــذا لا يســر الحشوية الذين يقلدون أهل الفرقتين المذكورتين آنفاً؛ لأن بعضهم يتمســكون بأن الطاعة هي أصل الإيمان، وبعضهم يقول: الإيمان هو إقرار قولي لــيس إلا، وكلا هذين المذهبين خطأ.

الفصل السابع: الإيمان عند الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم قدس الله سره

وبالاختصار، فالإيمان هو حقيقة اشتغال الأوصاف الآدمية في طلب الله، ويلزم كل مؤمن أن يقر بهذا. سلطان المعرفة يقوى على صفة الشرك، وأين وجد الإيمان ذهب الشرك، لأنه كما قيل: لا فائدة في السراج إذا طلع الفجر، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ (النمل: ٣٤) لأن المعرفة إذا تسيطرت في قلب العارف، اندرست معالم دول الشك والرأى والشرك، وتسيطر سلطان المعرفة على حواسه وهواه، حتى يجعلها في طاعته، فيكون في كل نظره وفعله وقوله محفوظاً بحصون السنة.

قرأت: أنه لما سئل إبراهيم الخواص عن حقيقة الإيمان أجاب: لا يحضرنى جواب على هذا السؤال الآن، لأن كل ما أقول ليس إلا تعبيراً، وإنه يلزمني أن أجيب عنه بأعمالي، ولكني مسافر لمكة، فاصحبنى حتى أجيبك عليه، قال الراوى فقبلت منه ذلك، وكان في طول سفرنا في الصحراء يأتينا كل يوم برغيفين وقدحين من الماء، فيعطيني إحداهما ويأخذ الآخر لنفسه، فذات يوم رأيت رجلا كبير السن اقترب منا، ثم نزل وتكلم مع إبراهيم لحظة من الزمان، ثم تركنا فسألت إبراهيم أن يخبرنس من هو؟ فقال: هذا هو جواب سؤالك. فقلت له: كيف ذاك؟ فقال: ذاك الخضر طلب مني أن يصحبني، لكني رفضت ذلك مخافة أني في صحبته أتكل عليه دون الله، وبذلك ينقص توكلي عليه، فحقيقة الإيمان هو التوكل على الله تعالى والحقيقة أن الإيمان هو اعتقاد القلب في العلم الذي يأتى من الغيب، لأن الإيمان هو فيما هو غائب؛ وإنما ينال بأن يقوى الله تعالى

اليقين في عبده، الذي هو نتيجة المعرفة المفاضة عليه من الله تعالى ويلزمني الآن أن أرجع إلى مسائل المعاملات مبيناً مصاعبها.

سَلْبُ ٱلْوُجُودِ حَقِيقَةُ ٱلإِيمَانِ ... وَشُهُودُهُ هُوَ رُتْبَةُ ٱلإِحْسَانِ
وَشُهُودُ أَنَّكَ هُو بِعَيْنِكَ فَٱعْتَقِدْ ... وَٱعْلَمْ يَقِينًا صِحَّةَ ٱلْبُرْهَانِ
وَإِذَا شَهِدْتَ جَمَالَ حُسْنِكَ ظَاهِرًا ... فَٱفْنَ ٱلشُّهُودَ وَمِلْ إِلَى ٱلدَّيَّانِ
وَٱسْمَعْ خِطَابَكَ مِنْكَ فِي مَجْلَى ٱلْبَهَا ... وَٱنْظُرْ إِذَا فُتِحَتْ لَكَ ٱلْعَيْنَانِ
وَٱنْهَضْ عَلَىٰ قَدَمِ ٱلشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا ... وَٱسْمَعْ لَذِيذَ حَلاَوَةِ ٱلْقُرْآنِ
وَٱعْلَمْ بِأَنَّكَ صِرْتَ عَرْشَ صِفَاتِهِ ... وَٱلْعَرْشُ مَجْلَىٰ مَظْهَرِ ٱلرَّحْمَٰنِ
وَٱجْلِسْ عَلَىٰ كُرْسِي ٱلْهُوِيَّةِ مُعْلِنًا ... بِظُهُورِ نُورِ ٱلْحَقِّ لِلأَعْيَانِ
نَادِي بِأَنَّكَ وَاحِدٌ أَحَدٌ وَلاَ ... تَنْسَ فَتُكْتَبَ فِي رِيَا ٱلإِنْسَانِ
وَدَعِ ٱلشُّهُودَ لِدَارِ عَدْنٍ إِنْ بَدَا ... لَكَ حُسْنُهُ فِي رُتْبَةِ ٱلإِمْكَانِ
قُلْ لاَ أُرِيدُ سِوَاكَ بَلْ أَنَا أَنْتَ يَا ... هُوتَ ٱلْهُوِيَّةِ فِي عُلُوِّ ٱلشَّانِ
قَدْ شِمْتُ مِنْكَ مَظَاهِرًا وَتَحَقَّقَتْ ... نَفْسِي يَقِينًا عِنْدَ لُقْيَا حَنَانِ
وَشَرِبْتُ مِنْ يَدِ قَبْضَةِ ٱلأَنْوَارِ مَا ... أَحْيَىٰ فُؤَادِي بَعْدَ كَشْفِ ٱلرَّانِ

الباب الثامن: مذهب الصوفية في المحافظة على الحكمة

الفصل الأول: لكل مقام مقال

لا عصمة إلا لرسول الله ﴿﴾، ومن لم يأتم به هلك وأهلك، مع أنه ﴿﴾ كانت أحواله وأقواله وأعماله هي خالص المحبة الروحانية، والسكينة الإلهية، فإنه ﴿﴾ كان يسير بالمسلمين على قدر ضعفائهم، ليبين لنا سبل السير إلى الله سبحانه وتعالى، فكان ﴿﴾ يجلس المجلس العام لبيان الأحكام، والمعاملات، والإسلام، ثم يجلس المجلس الخاص مع أهل الصفة، لبيان الأحوال، والأخلاق، وتزكية النفوس، ثم يجلس المجلس الأخص مع أفراد اصطفاهم له ﴿﴾، عن أمره الله سبحانه وتعالى بأن يصير نفسه ﴿﴾ معهم، فيتكلم معهم في مقامات التوحيد، منازلات اليقين، ولذلك، فإنك ترى الأمة أجمعت على النظر في كلامه ﴿﴾ واشترط الرجال شروطاً، ولم يقبلوا أحاديث كثيرة لم تصح عندهم بطريق مطابق لشروطهم، مع صحة المتن حقاً، وصحة السند، وإن لم يقبل عندهم، وأكثر الأحاديث الإفرادية التي وردت عمن لا شهرة لهم بين الصحابة، ممن اقتطفتهم المحبة، واختطفهم الشوق إلى الله تعالى. ولرجال الحديث العذر فيما أنكروه؛ لأنه لا ينبغي أن يباح للعامة، حفظاً للقوى العقلية، ومن تصفح الكتب الست، يظهر له تفاوت مترلتها بين الأمة، بقدر حيطة أصحابها – رضي الله عنهم – والتشديد في الشروط، وأكثر الأحاديث المتضمنة لغوامض التوحيد مما أخذ به الرجال لا شهرة لها بين أهل

الحديث، حفظاً لأسرار الحق أن تذاع.

الفصل الثاني: لا لوم على المقهور

كان الرجال رضى الله عنهم في بدايتهم، وقوة أحوالهم عليهم، قد يقهرهم الوجد، إلى أن يظهروا أحوالهم أمام من ليسوا أهلاً لها، مع حسن النية، وسلامة السريرة، وحسن الظن بالخلق، فإذا ترقوا عن مقاماتهم إلى مقامات العين، أو الحق في اليقين، والتحقيق في التمكين، ظهر لهم سوء عملهم، فندموا، وتابوا إلى الله، ثم تلوح لهم من لوامع سر القدر، ما أجراه الله تعالى بسابق حكمته على أيدى رسله، مما أضل به كثيراً، وهدى به كثيراً، فيرجعون إلى الله في الأمر كله. وفى هذا أمر الإشارة في قول موسى عليه السلام أن يضل بها من شاء، ويهدي بها من شاء. ويحتاطون للحكمة ضنا بها أن تكون مشرعة للسالكين، أو طريقاً للواردين، وحفظاً لها أن تتناولها أيدى الجهلاء المغرورين، ولكن بعد ماذا وهي سنة ماضية؟ ولا عصمة إلا لرسول الله ﴿ﷺ﴾، وقد سبق في الأزل أن يتلقى الحكمة غير أهلها، ليكونوا أبواباً للهاوية، يهوي بهم في نار البعد، من سجل عليهم القضاء بالضلالة.

– أعوذ بوجهه الكريم – لا عذر لهم حقاً في إباحتها، ولو قهرهم حالهم، والواجب على كل مسلم أن يردهم عن إباحة الحكمة لغير أهلها، ولكن الرجال في بدايتهم اختطفتهم يد العناية، وجذبهم الحق حتى جمعهم عليه، فكان معالم بين أعينهم، والناس في غفلة وإنما يتبعهم أهل التسليم ممن لم تحجبهم حظوظ وأهواء.

الفصل الثالث: مفاتيح أبواب الردى

هؤلاء الذين يجتمعون على أهل المقامات العلية تحصل منهم المضرة على غيرهم، لأنهم يجعلون الحكمة سبيلاً إلى ظهورهم بين الخلق، فيبيحونها لغير أهلها، طمعاً فيما لا مطمع فيه، وبهم المضرة، وقد قدر الله ذلك في ذات رسله، فإن موسى السامري قبض قبضة من أثر الرسول، فاستعمل مشاهد الأرواح للأشباح، حتى ضل وأضل، ونسي التتريه، وجذب قلوب أمة معهم رسول من أولي العزم ورسول كريم، فمالوا معه، وعبدوا العجل، وخالفوا سيدنا هارون عليه السلام، وكذلك بلعام بن عوراء الذى آتاه آيات الحكمة، فكفر، واستعملها في إضلال الناس، وأخلد إلى الأرض، وقد شرح القرآن الكريم أخبارهما، وكم أفسد جماعات من المسلمين بما تلقوه من الحكمة عمن تلقوها، ذلك لأن العلماء والربانيين، يهب الله لهم نوراً تلوح به سيما الخلق، فلا يبيحون سراً قدر الحكمة، وجهلوا قدر النفوس وتفاوتها، لا يبالي أحدهم أن يبيح من أسرار الحكمة لغير أهلها، مهما بلغ ذلك، وذلك، لأنه لو كوشف بحقائق تلك الأسرار، لبخل بها أن تسمعها أذناه، ولا ينتفع أحد بتلك الأسرار العلية، إلا من سمعها من فم العالم الربانى.

الفصل الرابع: مفاتيح أبواب الهدى

إن أنوار الحق تشرق على القلب، قبل نطق العارف؛ لأنها تصدر من قلبه محملة بالإخلاص لوجه الله،ونجاة الخلق، وجمعهم على الحق ومن أين لغيره ونفسه ، وبيء، وهواه قاهره، أن يبيح الحكمة، فإنه لو أباحها ولو لأهلها، سبقت ظلمات ، ونيران هواه، إلى قلب السامع، فإن قبل فسد القلب، إن أنكر الحق، ولذلك فعشاق العلم بالله سواحون في الأرض، يلتمسون العالم الرباني أين كان، فإذا أنسوا منه بالمعرفة حقاً، والاقتباس من مشكاة الأنوار، كانوا معه كما قال الصحابي ﵁: من حفظني آية من كتاب الله أو روى لي حديثاً من كلام رسول الله، كنت له عبداً .أكرر التنبيه على إخواني أن من سمع منهم الحكمة يجتهد أن يكمل بها نفسه، ويبخل بها أن يبيحها لأحد ما دام الرجل حيا بين ظهرانيهم، حتى ينتفع الناس بالحكمة حقاً، فإذا مات الرجل يجب عليهم أن يطووا هذا البساط، إلا ما سمعوه منه، أو ما رووه عنه، خشية من أن يتكلم في العلم الإلهي بلا كشف وبيان، فإنه مزالق الإقدام، ولا أحظر عليهم أن يديموا مذاكرة الحكمة، وأن يكثروا من مطالعة كتبها، حتى تنفجر ينابيعها من القلوب بفضل الله، والله ذو الفضل العظيم.

عَنِّي ٱسْمَعُوا مَا تَعْقِلُونَ مِنَ ٱلْكَلامَ ... فَٱلْعِلْمُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنْ صَافِي ٱلْمُدَامْ

وَٱلْعِلْمُ بِٱللَّهِ ٱلْعَلِيِّ غَوَامِضٌ ... لَمْ يُفْقَهَنْ إِلَّا لِصَبٍّ فِي ٱصْطِلامْ

خُذْ مَا صَفَا لَكَ مِنْ إِشَارَةِ عَارِفٍ ... فَٱلْعَارِفُونَ كَلامُهُمْ يَشْفِي ٱلسِّقَامْ

سَلِّمْ أَحَادِيثَ ٱلْحَقَائِقِ تَسْلَمَنْ ... تُسْقَىٰ شَرَابَ ٱلْحُبِّ فِي أَعْلَىٰ مَقَامْ

فَٱلْوَاصِلُونَ رَأَوْا جَمَالاً ظَاهِرًا ... قَدْ أَخْرَجَ ٱلنُّسَّاكَ فِي ظِلِّ ٱلظَّلامْ

دَارَتْ عَلَيْهِمْ خَمْرَةُ ٱلْحُبِّ ٱلَّتِي ... قَدْ وُجِهُوا فِيهَا بِوَهَّابٍ سَلامْ

فَرُّوا إِلَى ٱللَّهِ ٱلْعَلِيِّ بِهِمَّةٍ   حَتَّىٰ رَأَوْا نُورَ ٱلْجَمِيلِ وَلاَ لِثَامْ
فِي ٱلْبَدْءِ وَاجَهَهُمْ تَعَالَىٰ رَبُّنَا   فِي ٱلْخَتْمِ أَوْلاَهُمْ جَمَالَ ٱلاِعْتِصَامْ
سَارُوا سِرَاعًا لِلْوَلِيِّ وَفَارَقُوا   دُنْيَا وَأُخْرَىٰ فِي ٱصْطِلاَمٍ فِي هُيَامْ
لَمْ تَشْغَلَنْهُمْ دَارُ فِرْدَوْسٍ وَلاَ   عَدْنٍ وَحُورٌ أَوْ خِيَامْ
لَمَّا رَأَوْا وَجْهَ ٱلْعَلِيِّ تَهَيَّمُوا   غابُوا عَنِ ٱلْجَنَّاتِ عَنْ أَعْلَىٰ مَقَامْ
وَجْهُ ٱلْجَمِيلِ ٱلْحَقِّ جَلَّ مُرَادُهُمْ   حَالَ ٱلْعِبَادَةِ فِي صَلاَةٍ فِي صِيَامْ
صَوْبَ ٱلْجَمِيعِ ٱلْحَقِّ جَلَّ مُنَزَّهًا   أَخْفَى ٱلْكِيَانَ بَدَا لَنَا فَوْقَ ٱلْغَمَامْ
مَوْلاَيَ قَرِّبْنَا ٱقْتِرَابَ قُرَابَةٍ   أَحْيَا بِهَا نُعْطَى ٱلْمَحَبَّةَ وَٱلْمَرَامْ
هِبْنَا ٱلْعِنَايَةَ وَٱلْوَلاَيَةَ وَٱلْعَطَا   فَضْلاً بِإِحْسَانٍ مِنَ ٱلْبَرِّ ٱلسَّلاَمْ
أَكْرِمْ بَنِيَّ وَخِلَّتِي وَتَوَلَّنِي   مَوْلاَيَ بِٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ عَلَى ٱلدَّوَامْ

الفصل الخامس: الشريعة حصن السالكين

والشريعة حصن السالكين، وروض الواصلين، وجمال الأفـراد المحبـوبين فليلزم كل أخ ظاهر الشرع، وليعلمه، فإنه أماني من الله، وسبيل القرب منه جل جلاله. وقد جهر الكثير من السالكين سبل الوصـول إلى الله تعـالى فـأهملوا الأعمال البدنية، وظنوا أنهم يحسنون صنعاً، وهي الهاوية الـتي قـادهم إليهـا الشيطان الرجيم؛ لأن الصراط المضروب بين الحق والخلق هو قول رسـول الله ﴿ ﴾ وعمله ﴿ ﴾، وحاله ﴿ ﴾ يقول: "الشريعة أقوالى والطريقـة أعمـالى، والحقيقة أحوالى" فمن لم يسمع قوله ويعمل بعمله ﴿ ﴾ ويتحلى بحالـه فهـو ناكب عن الصـراط المسـتقيم، سـالك وراء الشـيطان الـرجيم، لأنـه ﴿ ﴾ الرحمة العامة، ونعمة الله العظمى، وقد أمرنا الله تعالى في كل يوم أن نسأله حسن اتباعه أربعاً وثلاثين مرة، فإن الله فرض علينا سبع عشرة ركعة في اليوم، وسن لنا رسول الله ﴿ ﴾ سبع عشرة ركعة، نقرأ في كل ركعة فاتحة الكتـاب، فنقول: إهدنا الصراط المستقيم.

فلو أن الله تعالى استجاب لنا، وقبل منا، لهدانا صراطه المستقيم، صـراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ولكنـا إذا أهملنا الأعمال البدنية كان ذلك دليلاً على سخط الله وغضبه، وأنه لمـا أهمـل الأعمال البدنية صراطه المستقيم، وكيف لا وقد كره أن يواجه بوجهه الجميل في مقام الصلاة؟ وكره سبحانه وتعالى أن يوفقه لما وفق له أئمة الهدى. نعوذ بالله من لمسة الشيطان الرجيم.

الفصل السادس: الأعمال البدنية نتائج الأعمال القلبية

الأعمال البدنية نتائج الأعمال القلبية، فمتى واجه القلب إلهاً عظيماً كبيراً، ورباً منعما قهاراً تحقق بأنه عبد له سبحانه وتعالى فسارع إلى التلذذ بالقيام بحقوق العبودية، فإذا رده الله تعالى غدًا حرمة المعونة، سر قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) وقد تقدم لى أن الاستعانة وسيلة، والعبادة مقصد، ولكنه ﷻ قدم المقصد على الوسيلة فقال: إياك نعبد لينبه القلوب لسر ما خلقهم لأجله، وإلى الحكمة التي أبدعهم لأجلها.

هذا ولا أزال أقول إن مقام الاصطلام الماحق، والوجد السابق، والجمع على الحقيقة الذي يهدم أركان البشرية، ويطفيء نار الآدمية، لا يلام صاحبة، فإنه غاب عن نفسه وحسه، إنما أتكلم مع المتكلفين الأدعياء، الذين يميزون بين الحار والبارد، وبين الفضة والذهب، وبين الطعام الشهي وغيره، ثم يهملون أعمال الأبدان. إن هؤلاء شياطين مردة، وهم أضر على المسلمين من إبليس الرجيم، لا لوم على من اقتطعته واختطفته أنوار بوارق العزة، فاستوى معه الموت والحياة، والعافية والسقم، وصارت المرأة الحسنة، والحجر سواء، هذا مخطوف العناية، لا يأس بغير ربه، ففر من نفسه، فكيف يأنس بغيره؟ وليس هذا في نظر الرجال بكامل، فإن فوق هذه المشاهد مشاهد مقامات القربن ومكاشفات منازلات القريب، وإشراق أنوار إله عظيم كبير، على قلب عبد ذليل، منكسر خاشع، وموارد هنية من طهور يسقيه الرب ﷻ سر قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان: ٢١) وحلل عليه من ميراث خير

البرية، وهو مقام الفرد الكامل العبد، المتحقق بالعبودة، محل نظر الله من خلــق الله، المتجمل بكل معاني أهل معية رسول الله ﴿ﷺ﴾، وقد أطلــت الكــلام في السماع لمساس الحاجة إليه. والله أسأل أن يلهم أخوتي المــؤمنين الصــواب في القول، والعمل والحال والاعتقاد، إنه مجيب الدعاء رب العالمين. وإن من الناس طائفة يعبدون الله بألسنتهم، ويعبدون الدنيا بقلوبهم، وهم المراءون، وهــؤلاء أضل ممن سبق ذكرهم لأن السالك قد يقلد مرشداً مصطلماً يحمل قلبه بــأنوار الشوق، ولكن هؤلاء الذين يعبدون الله بألسنتهم، ويعبدون الــدنيا بقلــوبهم، عظموا الخلق، وحقروا الحق، ولا عذر لهم، وقد شنع الله عليهم في القــرآن في أعظم آياته، وجعلهم أنواعاً، وهؤلاء يفضحهم الله تعالى في الدنيا أعــاذني الله تعالى من شرورهم، فترى الرجل منهم كثير العبادة، كثير الذكر، كثير الصيام، كثير الخلوة، ينتسب إلى ولي من أولياء الله لينال غرضاً فانياً، فإن ظفر بغرضه، لازم العبادة، وإن لم يظفر انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، وهو الذى شنع الله عليه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ (الحج: ١١).

سُبْلُ إِلَى ٱلْحَقِّ لِلطُّلَّابِ قَدْ وَضَحَتْ	هِيَ ٱلتَّجَــرُّدُ فِيهَــا آيَــةُ ظَهَــرَتْ
مِنْهَا ٱلْجِهَادُ جِهَادُ ٱلــنَّفْسِ مَبْــدَؤُهَا	بِٱلْحَقِّ لِلْحَقِّ عَنْ حَظٍّ وَمَــا أَمَلَــتْ
وَٱلْأُنْسُ بِٱللَّهِ لَا بِٱلْخَلْقِ حَالَ صَــفَا	فُؤَادِهِ مِنْ حُظُوظٍ فِيــهِ قَــدْ ثَبَتَــتْ
يُلَاحِظَــنْ سِــرَّ أَسْــمَاءٍ مُقَدَّسَــةٍ	وَمُقْتَضَاهَا شُــئُونٌ غَيْبُهَــا كَشَــفَتْ
يَرَى ٱلشُّئُونَ عَنِ ٱلْأَسْــمَا فَيُؤْنِسُــهُ	شُهُودُ مَوْلَاهُ وَٱلْآثَــارُ قَــدْ خَفِيَــتْ
فِي كُلِّ شَــيْءٍ يَــرَىٰ مَعْنَــىٰ تَنَزُّلِــهِ	وَمُقْتَضَى ٱلْحَظِّ وَٱلْأَهْوَا بِهِ حُجِبَــتْ
طَوْرًا يَرَىٰ حُسْــنَ مَــوْلَاهُ وَآوِنَــةً	يَرَىٰ جَلَالَ جَمِيلٍ شَمْسُــهُ طَلَعَــتْ

لاَ يُشْغَلَنْ بِجَمَــالٍ عَــنْ مُوَاجَهَــةٍ عَنِ ٱلْجَلاَلِ إِذَا مَــا رُوحُــهُ نَظَــرَتْ
لَهُ مَقَامَــاتُ رَهْــبٍ عَــنْ تَمَكُّنِــهِ وَرَغْبَــةٌ إِنْ سَــتَائِرُ وَجْهِــهِ رُفِعَــتْ
قِوَامُــهُ رَهَبُــوتٌ مِــنْ جَلاَلَتِــهِ وَمِنْ صَفَا رَغَبِ ٱلرَّغَبُوتِ قَدْ مُزِجَتْ
بَسْطٌ بِمَــوْلاَهُ مَشْــغُولٌ وَمَشْــهَدُهُ أُفْقٌ بِهِ آيَــةُ ٱلتَّنْزِيــهِ قَــدْ نُسِــخَتْ
فُــؤَادُهُ عَــرْشُ أَسْــمَاءٍ مُقَدَّسَــةٍ وَلُبُّهُ ٱللَّــوْحُ مَحْفُــوظٌ بِــهِ كُتِبَــتْ
تَــرَاهُ بِــٱلْكَوْنِ مَشْــغُولٌ وَبَاطِنُــهُ لَهُ ٱلْحَقَائِقُ بِٱلإِلْهَــامِ قَــدْ عُلِمَــتْ
مَعَ ٱلْمُكَوِّنِ بِٱلسِّــرِّ ٱلْجَلِــيِّ عَلَــىٰ مَنَاهِجٍ لِلْهُدَىٰ وَٱلْحَقِّ قَــدْ شُــرِعَتْ

الباب التاسع

مشاهد الصوفية في حكمة تقدير المعاصي

الفصل الأول: قدر المعاصي سبحانه ليجمل عباده المطلوبين بما يحبه منهم

لا أشك أن من يقرأ هذا العنوان تترعج نفسه، ولكني على يقين أنه لا يلبث إلا ريثما يطالعه فيفقه ما أريد، ويشكر الله سبحانه وتعالى على خفي لطفه بمن سبقت لهم الحسنى، وعلى عظيم فضله عليهم، حتى في تقدير وقوع المعاصي منهم. سبحانه ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وصدق رسول الله ﷺ في قوله: "إن الله لا يمكر بطالبه" وفى قوله ﷺ "يد المؤمن في يد الله كلما وقع أقامه" وفي قوله ﷺ: "إن الله ليغفر للعبد بالذنب يذنبه". وإليك تفصيل ما أجملت لك في العنوان.

الفصل الثانى: مشاهد أهل المعاصى

ممن سبقت لهم الحسنى

إن للسالك في سيره نشوة عن شهود آيات التجليات، ومزيداً من علم اليقين في بيان حكم الكائنات، وعلماً بنفسه، وجمالاً يظهر له فيها بما بذله من نفيس وقته، ونفائس أمواله، مجاهدة في ذات الله، فإذا أشرقت عليه تلك الجمالات النفسانية، نظر إلى الناس وإلى نفسه فقهر حالة إلى أن يرى نفسه محسناً، وأنه خير من غيره، وتلك لبسة عن لمة من القوة البشرية بالقلب، وهذه اللبسة تحجبه عن التحقيق بمشاهدة القدرة والحكمة، فقدر الله عليه المعصية أزلاً، ليشهد من مشاهد القرب، ويذوق من طهور الحب، ويتجمل بحلل العبادة، فالعبودية، فالعبودة، ويرقى إلى مقامات اليقين، بعد التلوين، وحصون التمكين بعد التخلية، والشفاء من الداء الدفين، وللمعاصي مشاهد عن مقامات علية، لا يبلغها السالك إلا بارتكاب تلك الدنية، حتى تتضاءل نفسه في نظره، ويصغر في عينه، ويعلم قدرها فيصفو مورده، ويحلو مشهده، ولينال السالك المسترشد شميم هذا العبير، ورشف هذا الطهور.. أبين لك حكمة تقدير المعاصى على من سبقت لهم الحسنى، والمشاهد العلية التي يبلغونها بارتكابها، لتعلم قدر منة الله تعالى عليهم، وخفي ألطافه بهم، وجميل عنايته سبحانه لتعلم أن الله ﷻ لا يقدر على من يحب إلا ما به يكون محبوباً في مآله، والمقاصد تبرر الوسائل، وإليك بيان ذلك: بينت لك أني أكتب مشاهد أهل المعاصي، ممن سبقت لهم الحسنى وهم أهل الاستقامة، الذين يرفعهم الله – تعالى – بالوقوع في المعاصى من حضيض الغفلة والغرور والفرح بما أوتوا ويشفيهم سبحانه وتعالى بها من

أمراض النفوس، ويطهرهم بها من لقسها.

الفصل الثالث: مشاهد أهل المعاصي

ممن سبقت لهم السوءى

لا أحب أن أطيل عليك بذكر مشاهد أهل المعاصي، ممن سبقت لهم السوءى، فإن نفوسهم: إما بهيمية، وهم الذين همهم العاجلة، ولا يؤمنون بيوم الحساب، وهم أشبه بالكلاب، وإن كانوا علماء بظاهر الحياة الدنيا، وقد شبههم الله تعالى بالكلاب – قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ (الأعراف: ١٧٥-١٧٦). وإما نفوس سبعية، وهم أهل العدوان، والمسارعة إلى الانتقام بالسيف، أو بالهمة النفسية، أو بالعين – وإما نفوس إبليسية، وهم أهل الجدل في الباطل، والساعون للمفاسد، والتفرقة، والغيبة، والنميمة، وإشاعة الفاحشة بين المسلمين، وإظهار البدع، وإخفاء السنن، وهؤلاء مشاهدهم إبليسية يستخدمون قوة العقل فيما يضر الخلق، ويغضب الحق – نعوذ بالله منهم ومن التشبه بهم– وأحوالهم لا تخفى على أهل افستقامة مهما جملوا ظاهرهم، ومنهم الجبرية، والقدرية، والغلاة في التفاضل كالخوارج، وغيرهم من الفرق الضالة. عصمني الله وإياك يا أخي من الوقوع فيما يكره، إنه مجيب الدعاء.

الفصل الرابع: مشهد الحكمة

أبتديء للك بمشهد الحكمة، وهو مشهد حكمة الله في تقديره على عبده ما يبغضه سبحانه ويكرهه ويعاقب عليه، وأنه سبحانه لو شاء لعصمه منه ولحال بينه وبينه، إذ لا يكون في العالم شيء إلا بمشيئته تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤) وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سدى، وأنه له الحكمة البالغة في كل ما قدره وقضاه، من خير أو شر، وطاعة ومعصية، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها، وتكل الألسن عن التعبير عنها، فمصدر قضائه وقدره لما يبغضه وبسخطه اسمه الحكيم الذى بهرت حكته الألباب. وقد قال تعالى لملائكته لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠) فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠) فلله سبحانه في ظهور المعاصي والذنوب والجرائم وترتيب آثارها من الآيات والحكم، وأنواع التعرفات إلى خلقه، وتنويع آياته، ودلائل ربوبيته، ووواحدانيته، وإلهيته، وحكمته، وعزيه، وتمام ملكه، وكما قدرته، وإحاطة علمه، بما يشهده أولو البصائر عياناً فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ (آل عمران: ١٩١) سبحانك، إن هي إلا حكمتك الباهرة، وآياتك الظاهرة، ولله في كل حركة وسكنة شاهد، وفي كل شيء له آية في الأرض بينة دالة على الله، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق، كان سببها معاصي بني آدم وذنوبهم، كآيته في إغراق قوم نوح ﵇، وارتفاع الماء على رءوس الجبال حتى أغرق

جميع أهل الأرض ونجى أولياءه، وأهل معرفته وتوحيده، وكذلك قوم عاد وثمود..

وكم من آية في فرعون وقومه، من حين مبعث سيدنا موسى عليه السلام إليهم، بل قبل مبعثه إلى حين إغراقهم، لولا معاصيهم وكفرهم لم تظهر تلك الآيات والعجائب، وفي التوراة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام (اذهب إلى فرعون فإني سأقسّي قلبه وأمنعه عن الإيمان لأظهر آياتي وعجائبي بمصر) وكذلك إظهاره سبحانه ما أظهر من جعل النار بردا وسلاماً على إبراهيم عليه السلام بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم، وإلقائهم له في النار، حتى نال سيدنا إبراهيم عليه السلام ما نال من كمال الخلة، وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والأولياء والأصفياء، بسبب صبرهم على أذى بني آدم من أهل المعاصي والظلم، ومجاهدتهم في الله، وتحملهم لأجله من أعدائه ما هو بعينه وعلمه، واستحقاقهم بذلك رفعه الدرجات، إلى غير ذلك من المصالح والحكم التي وجدت بسبب ظهور المعاصي، وكان من سببها تقدير ما يبغضه الله ويسخطه، وكان ذلك محض الحكمة، لما يترتب عليه، مما هو أحب إليه، بتقدير عدم المعصية.

فحصول هذا الحبيب العظيم أحب إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط، فإن فواته وعدمه وإن كان محبوباً له – لكن حصول هذا المحبوب الذي لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحب إليه، وفوات هذا المحبوب الذي لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحب إليه، وفوات هذا الحبوب أكره إليه من فوات ذل المكروه المسخوط..

وكمال حكته يقتضي حصول أحب الأمرين إليه، بفوات أدنى المحبوبين، وأن لا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه، ويكفي في هذا مثال واحد.

وهو أنه لولا المعصية من أبي البشر، بأكله من الشجرة، لما ترتب على ذلك من وجود هذه المحبوبات العظام للرب تنزه وتعالى من امتحان خلقه، وتكليفهم، وإرسال رسله، وإنزال كتبه، وإظهار آياته وعجائبه، وتنويعها، وتصريفها، وإكرام أوليائه، وإهانة أعدائه، وظهور عدله وفضله، وعزته وانتقامه، وعفوه ومغفرته، وظهور من يعبده ويحبه، ويقوم بمراضيه بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان، فلو قدر أن سيدنا آدم عليه السلام لم يأكل من الشجرة، ولم يخرج من الجنة هو وأولاده لم يكن شيء من ذلك، ولا ظهر من القوة إلى الفعل ما كان كامناً في قلب إبليس مما يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة، ولم يتميز خبيث الخلق من طيبه، ولم تتم المملكة، حيث لم يكن هناك إكرام وثواب، وعقوبة وإهانة، ودار سعادة وفضل، ودار شقاوة وعدل، وكم في تسليط أعدائه على أوليائه، وتسليط أوليائه على أعدائه، والجمع بينهما في دار واحدة، وابتلاء وبعضهم ببعض، من حكمة بالغة، ونعمة سابغة، وكم في طيها من حصول محبوب للرب، وحمد له من أهل سماواته وأرضه، وخضوع له وتذلل، وتعبد وخشية، وافتقار إليه وانكسار بين يديه. أن لا يجعلهم من أعدائه، إذ هم يشاهدونهم، ويشاهدون خذلان الله لهم، وإعراضه عنهم، ومقته لهم، وما أعدلهم من العذاب، فأولياؤه من خشيته مشفقون خاضعون على أشد وجل وأعظم مخافة، فإذا رأت الملائكة إبليس وما جرى له، وهاروت وماروت، وضعت رءوسها بين يدى الرب، خضوعاً لعظمته، واستعانة لعزته، وخشية من أبعاده وطرده، أو افتقار إلى رحمته، وعلمت بذلك منته عليهم، وإحسانه إليهم، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته، وكذلك أولياؤه المتقون، إذا شاهدوا أحوال أعدائه، ومقته لهم وغضبه عليهم، وخذلانه لهم، ازدادوا منه خشية ورهبة، وعلموا أنه لا ملجأ لهم منه إلا إليه،

وأُهم لا يعيذهم من بأسه إلا هو، ولا ينجيهم من سخطه إلا مرضاته، فالفضل بيديه أولاً وآخراً، وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه، والبصـــير يطـــالع ببصيرته ما وراءه.

وأما حظ العبد في نفسه، و ما يخصه من شهود هذه الحكمـــة، فبحســـب استعداده، وكمال علمه ومعرفته بالله تعالى، بأسمائه وصفاته، ومعرفته بحقـــوق العبودية والربوبية، وكل مؤمن له من ذلك شرب معلوم.

الفصل الخامس: مشهد التوحيد

وهو أن يشهد انفراد الرب –تبارك وتعالى– بالخلق والحكم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه تتحرك ذرة إلا بإذنه، وأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنه ما من قلب إلا وهو بين أصابعه، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، فالقلوب بيده، وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء، وأنه هو الذي آتى نفوس المؤمنين تقواها، وهو الذى هداها وزكاها، وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (الكهف: ١٧) يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه وتوحيده، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه وتوحيده.

وفي هذا المشهد يتحقق للعبد مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) علماً وحالاً، فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الإلهية، فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء، كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه هو الذى يقلب القلوب ويصرفها كيف شاء، وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه، وتخلى عنه (أي وكله إلى نفسه) وأن أصح القلوب وأسلمها، وأقومها، وأرقها، وأصفاها، من اتخذه وحده إلهاً معبوداً، فكان أحب

إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه، فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، فتنساق المحاب تبعاً لها، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخاوف، فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب، وأول ما يتعلق القلب بتوحيد الربوبية، ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية، كما يدعو سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر، ويحتج عليهم به، ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (العنكبوت) وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٤-٨٥) فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه، ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٦-٨٨) وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (النمل: ٥٩-٦٠) إلخ الآيات.

يحتج بأن من عمل هذا وحده، فهو الإله وحده، فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه، وإن لم يكن معه رب فعل هذا، فكيف تجعلون معه إلهاً

آخر؟ والمقصود أن العبد يحصل له هذا المشهد، بتقدير العزيز الحكيم، وأنـــه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونتـــه، ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه. قال خطيب الأنبياء عليهم الصـــلاة والســـلام ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب العاشر: وصايا للسالكين طريق رب العالمين

الفصل الأول: أصل سعادات الإنسان

لكل حي من الأنواع سعادة ألهم سبل الوصول لنيلها، فعاشت الأنواع الحية في هناء يمثل كل فرد منها مملكة عظيمة، لأنه لا يحتاج إلى غيره من أفراد نوعه، ولا إلى الأنواع الأخرى، إلا الإنسان، فإن له سعادات لا تصفو حياته بدونها، وأصل كل تلك السعادات هي التمسك بالدين، لأن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بنفسه بأقل ضرورياته، إلا بمساعدة أكثر الناس، فكيف يمكنه أن يقوم بكمالياته منفرداً؟ قال الشاعر الحكيم:-

الناس للناس من بدو وحاضرة　　بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ولما كانت السعادة المنشودة، لا تتوفر إلا بتلك المساعدة، لزم أن يكون نعمة ومسراته ورفعته في الحياتين، بمقدار ما يقوم به هو للمجتمع من النفع الخاص أو العام، ومن قال إن السعادة صدفة جهل، فإن الصدفة مفقودة عند أهل الإيمان قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ (الأنعام: ٩٦) وقال أيضاً: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ (الرحمن: ٦٠) وقال : "اعملوا فكل ميسر لما خلق له" [رواه البخارى في كتاب القدر الباب ٤، وكتاب تفسير القرآن (سورة القرآن) الباب ٧،٥،٤،٣، وكتاب التوحيد الباب ٥٤، ومسلم في كتاب القدر الحديث ٨،٧،٦، والترمذى في كتاب القدر الباب ٣، وتفسير سورة الليل، وأحمد في الجزء الرابع صفحة ٦٧].

الفصل الثانى: احفظ دينك

لأن حفظك لدينك، ولنفسك، ولعرضك، ولمالك، وللأمة جميعها. وكيف لا؟ وقد فصل الله لنا ما لا بد لنا منه، وأكمل، بالتمسك به والعمل بوصاياه ساد سلفنا، حتى دانت لهم الأمم، وبلغوا مبلغاً من طاعة الله تعالى به استجاب الله لهم، وخدمتهم ملائكته. بين لنا الدين العقيدة الحقة بأجلى برهان، وأوضح بيان، وشرح لنا أنواع العبادات التي بها كمال الجسم والروح، ونيل السعادة في الدارين، فبش لها العقل، وهش، واطمأن لها القلب، وظهرت أنواره على الجوارح بالأخلاق الفاضلة فزكت النفوس، وانشرحت الصدور، واطمأنت القلوب، وأصبح المسلم أخاً للمسلم، لا يظلمه ولا يحقره. ساد بالتقوى بلال حتى قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : أبو بكر سيدنا، واعتق سيدنا. يعني بلالاً.

وضح لنا الدين المعاملة، حتى علم الفرد كيف يعاشر والديه، وزوجته وأولاده، وأتباعه. وعرف التاجر والمزارع والصانع والخادم ما يجب عليه. وأصبح لا فرق بين الملك على عرشه، وبين الفقير على فرشه، إلا بحق من حقوق الله تعالى، فصل لنا الأخلاق التي جعلت المسلم للمجتمع كالعضو للجسم، والمجتمع للفرد كالجسم للعضو.

حث الدين على العمل للدنيا والآخرة، مع الإخلاص لله، وجعل المال أساس كل خير، إذا جمع من طرقه المشروعة، أمرنا بكل خير به صفاء حياتنا في الدنيا، ونيل الخير في الآخرة، ونهانا عن كل شر يضرنا عمله في الدنيا والآخرة.

الفصل الثالث: احفظ مالك

اعلم أن المال هو من عناية الله تعالى بالعبد، به القيام بأكثر أركان الدين كالحج، والزكاة، والبر، والصلة، وبه حسن المعيشة في الدنيا، والرحمة على الفقراء، وحسن الذكر بعد الموت، والأجر العظيم يوم القيامة.

المال نعمة الله علينا، فكيف نستعين به على معصية الله؟ أو كيف نبذله في غير وجهه، فيفقد المسلم ماله وراحته في الدنيا، ويعذبه الله يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ ﴾ (الإسراء: ٢٧)

لا تنفق درهماً إلا إذا علمت أنك تكتسب أكثر منه من ثواب الله تعالى، أو من صحة، أو من منزلة بين الناس.

اجتهد أن تنمي مالك، وتحفظه في يدك، حتى إذا احتجت إليه وجدته، وكن رحيماً بالفقراء، واعتقد أن ما تنفقه على الفقراء ابتغاء وجه الله تنال به العافية، والوسعة في رزقك في الدنيا، والنجاة من هول يوم القيامة. قال رسول الله : "داووا مرضاكم بالصدقة" [رواه أبو داود في مراسيله عن الحسن مرسلاً، والطبرانى في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب في الجامع عن ابن مسعود، ورواه العسكري عن الحسن مرسلاً، والبيهقي عن أبي إمامة].

وقال : "الصدقة تطفيء غضب الرب" [رواه الطبراني في المحجم الصغير عن عبد الله جعفر العسكري في السرائر عن أبي سعيد].

الفصل الرابع: احفظ عرضك

أما حفظ العرض. قبل أن نبين فضيلته، فنعرفه:

العرض هو محل المدح والذم من الإنسان. وتتفاوت درجات حفظه، فيحفظ الإنسان كرامته بين الناس بالتوسط في معاملته، وبرعاية الآداب معهم، والمحافظة على الوفاء بالعهد، والإحسان إلى المحسن، والعفو عن المسيء، وستر عوراقمم، وبذل ما في الوسع لمساعدقمم، ليحفظ عرضه مما يشينه سمعة ومترلة، ثم يجب أن يكون ذا غيرة أولا على نفسه، حتى لا توقعه فيما يخجل، أو ما يشين، فيحفظ جميع جوارحه مما يغضب الله، ويسخط الخلق، وكما يكره أن يقع فيما يشينه يجتهد أن يمنع غيره من فعل ما يشين بقدر استطاعته، ويتعين على العاقل أن تكون له غيرة على حرمه، تجعله يكون يقظاً إلى هذا الجانب، وبقدر تلك الغيرة على أهله يجب أن يكون غيوراً على أعراض الناس، فيتصور ما يؤلمه في نفسه من حصول ما يشين، ومقدار ما يلم به من الغيظ، وحب الانتقام ممن آذاه في عرضه، بعد أن يتصور تلك الحقيقة، يتحقق أنه إذا أطاع هواه، وخالف مولاه، وأضر غيره، يكون قد سلط على نفسه من لا يعرف الله جلاله ومكن عدوه من نفسه قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: فإن المرء المؤمن كالفالج الياسر ما لم يغش دناءة تظهر فيخشع لها ويغرى بها لئام الناس. يعني أن المرء المؤمن ناجح رابح مالم يعمل قبيحاً، فإنه يذل ويخشع بين الناس. وحفظ العرض يجعل الإنسان عظيماً بين الناس، مأموناً على المال في النفس والعرض، موثوقاً به عندهم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الخامس : احفظ اللّه يحفظك

قال رسول الله : "احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده أمامك. كن مـــع الله تر الله معك" [رواه الترمذى وقال الحسن صحيح]. هذا الحديث الشريف جمع الخير كله، والخير أساسه معرفة الله تعالى ومحبته سبحانه وتعالى ومعرفـــة الله لا ينالها إلا من عرف نفسه، ومعرفة النفس لا يحصلها السالك إلا بصحبة المرشــــد الكامل، لأن الإنسان جمع الحقائق الكونية جميعها، فالإنسان حقيقة، والكــــون علوه وسفله صورة الحقيقة الإنسانية، لأن الله تعالى خلق الملك بيــــد، وخلـــق الكون بيد، وخلق الإنسان باليدين، فكان الإنسان – وهو هيكل صغير – حسا ومبنى. هو الكل روحاً ومعنى، وإذا تحقق بمعرفته شهد ما فيه من معنى ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص:٧٥)، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤) كشف له الحجاب فشهد ما فيه من الغيوب، التي يشهدها إلا صديق أو فاروق، فعلم ما يمكن أن يعلمه، وشهد ما يمكن أن يشهده في نفسه، ولمعت عليه سواطع أنـــوار قوله "إن الله خلق آدم على صورة الرحمن" [رواه البخارى في كتاب الاستئذان الباب الأول، ومسلم في كتـــاب الـــبر الحـــديث ١١٥، وفى كتـــاب الجنـــة الحديث٢٨ وأحمد في الجـــزء الثـــانى صـــفحة ٢٤٤، ٢٥١، ٣١٥، ٣٢٣، ٤٣٤، ٤٦٣، ٥١٩

فدهش عقله، وحار لبه، وسطعت أنوار العظمة والكبرياء والنزاهـــة عـــن الإدراك مع شديد الشوق وعظيم الغرام، فلم يستطع صبراً، ولم بنتحل عـــذراً، وألقى بنفسه في روض المشاهدة بعد المجاهدة، ليشهد الجبل، فظهر له أنه ليس

له مثيل، فعجز عن الإدراك، وفر من الإشراك، واشتد الهيام، ونما الغرام، فعرف نفسه بالعجز والذلة، ولزم آداب الشريعة بنفس مضمحلة، تتحقق أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولديها يحفظ الله حقا، بحول منه سبحانه وقوة منزها حضـرته العلية عن الشريك والمثيل، والضد والند، ملازما أعتاب العبودية، تسليما للشريعة، وخضوعا لسلطانها، وعملا بأحكامها، مع رعاية حكمة كل حكم، فكان حافظا لله بالله، رهبة ورغبة، فحفظه الله ولم يكله إلى نفسه، وأقامه مقام أبدال الرسل، عاملا بالإخلاص، محفوظا من أن يكون للشيطان عليه سلطان، أو يكون عبد الهواة وحظه، وهو من الذين قالوا ربنا الله بعنايته – سبحانه – ثم استقاموا بحسن توفيقه ومعونته، وإذا حفظه الله هذا الحفظ وفقه لمحابه ومراضيه، وأدخله جنة الرضا عن الله، بعد أى رضى الله عنه، وهو المحفوظ بالله من الفتن والمضلة، والأهواء المضلة، حتى لو سبق القدر عليه بالمعصية، تداركه بخفي لطفه، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١). لأن الله حصنه في حصون قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ﴾ (البقرة: ٢٥٧) ومن حفظ الله فحفظه الله تعالى، صار لا يخاف إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه، وتحقق أن الكون وما حوى مخلوق مقهور مربوب لرب علي عظيم، وبحفظه ربه، بعقد قلبه على حقيقة التوحيد، وقيامه بأحكام العبادة، في آيات التجديد، ومراقبة ربه في كل شأن من الشئون، كان – ولاشك– محفوظا بالله من شر الناس، ومن شر الوسواس، محصنا من الشدة واليأس، منعما عليه بتسخير ما في السموات وما في الأرض جميعا له من الله رب العالمين، وهذا هو منهج الحق، وصراط الله المستقيم، الذى جاءنا به حبيبنا رسول الله (ﷺ)، وهو

طريق آل العزائم، وكل سالك في طريقي هذا لا تسوح نفسه تلك السـياحة، ولا يجول عقله تلك الجولة، ولا ينفذ من أقطار السـموات والأرض بسـلطان لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ويقوم لله بما أمره به، ويترك ما نهاه عنه، فهو من الأدعياء في طريقى هذا.

الفصل السادس: كن مع اللّه تر اللّه معك

أولا: ما أجهل الإنسان ! !

يجتهد الإنسان أن يرضي جميع الخلق مع تفاوت قصودهم، وتباين آرائهم، واختلاف مذاهبهم، ويستحيل على الإنسان أن يرضى مجتمعا –ولو قل– بل قد يتعذر عليه أن يرضي واحدا فقط، لأن كل إنسان يطمع أن ينال من الآخر ما يطمع الآخر أن يناله منه، إلا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم والصديقين الأخيار من أوليائه، فإن طمعهم انحصر في الله تعالى، كما أن خشيتهم منه سبحانه؛ لأن الله أشهد عيون بصائرهم حقيقة الدنيا، وجمال الآخرة، وكمال الوجه العلي فجعلوا الدنيا مطية للآخرة رفرفا للوصول إلى حضرته، وغيرهم في عناء وتعب، ولن ينالوا إلا ما قدره الله تعالى لهم، فإذا أرضى الإنسان جماعة كرهه آخرون، فيعيش بين شرور الأعداء، والذل للأوداء، ليدفع عن نفسه شرور خصومه، ويستديم ولاء أحبابه وكفى بذلك همًا. والإنسان مكلف بحقوق لله، تستغرق كل أنفاسه، فإذا اشتغل بمدافعة الأعداء، ومداراة الأحباء، خرج من الدنيا مع ما هو فيه من الشغل، بتدبير نفسه وأهله ومنزله، وكل نفس يمضي مرحلة تقرب البعيد، وتنقص المسافة بينه وبين الموت، هذا الإنسان ما أغفله! لو تفكر لقال يا ليتني كنت ترابا في الدنيا قبل الآخرة.

بين الله للإنسان سبل السلامة، وطرق النجاة، ومناهج الخير، وأبى الإنسان أن يقيم نفسه عبداً مخلصاً لسده ومولاه، الذى أنشأه من ماء مهين، خرج من مجرى البول مرتين، وأخرجه من الرحم، بعد أن أعدله من الخيرات والنعم، مالاً يمكنه أن يقوم به لنفسه، فيغفل عن كل تلك النعم، بل وعن شكر

المنعم عليها، ثم يخاصم ربه، فلا يصدق وعده، ولا يبر قسمه، فتارة يسخط عليه إذا قدر عليه الرزق، وآونة يغضب عليه إذا لم ينله قصوده، ولو كانت في معصيته، وحالا ينكر ألوهيته ربه، ويضع ثقته في غيره، واعتماده على غيره، مع أنه يخضع لنظيره إذا حياه، أو سعى له في عمل دنيء، ويحبه بملء قلبه، ويغفل عن المنعم المتفضل بعميم النعم، ما أجهل الإنسان! لو علم الإنسان لسارع إلى إرضاء الله تعالى، وحرص على معيته –سبحانه وتعالى– بالتسليم له ﷻ والعمل بما أمر، والمحافظة على وصايا رسول الله ، وكل ذلك أمر سهل على الإنسان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

ثانياً: كيف تكون مع الله؟

إن الله تعالى تنزه عن المعية التي تعلمها من نفسك، لأنه كان ولا كون، وهو على ما عليه كان غني عن الكون، ولكنها رعاية تنكشف لك بها حقيقة نفسك، وسر مبدئك، ونشأتك الأولى، فترى في نفسك وفي آفاتك من آلاء إحسانه، وجميل حنانه، وآيات بيانه، ما يجعلك تحبه حباً فوق حبك لنفسك، وتعتقد أنه أقرب إليك من حبل وريدك، وأرحم بك من كل من سواه، إذا انكشف لك هذا الحجاب، تحققت أن الذي يحبه لك، ومنك خير لك من الذى تحبه لنفسك، ومن نفسك، فخالفت حظك، وهواك، ورأيك، مسارعة إلى ما يحبه هو، وفي هذا المقام تكون من المجاهدين المخلصين لحسك وجسمك وعقلك، فلا تتحرك حركة، ولا تسكن سكنة، إلا إذا استبان لك حكمها شرعاً، هل هي في رضا أو في سخط، بل ولا تنال خيراً إلا شكرت المنعم الذى وهبه، ولا يبتلى الإنسان ببلاء مما لا يلائمه إلا رضى عن الله، واعتقد أنه خير

بتلك الرعاية يكون الإنسان مع الله، حاضراً بالقلب. ومسلماً يتجمل بالرعاية، لا يهم بمعصية وإن قدرت عليه أعقبها بالتوبة النصوح، معتقداً عجزه عن دفع ما قدر عليه، راضياً عن الله فيما قدر، ساخطاً على نفسه بما فعلت.

ثالثاً: ما علامة معية الله سبحانه لي؟

إن الإنسان يحس بتنوع أحواله بحسب جليسه، فإذا جالس العالم الرباني انجذبت روحه إلى عالم الملكوت الأعلى، وقد تشرف على قدس العزة الجبروت، بما ترتسم على جوهر نفسه من رسوم العلم الإلهى، وقد قال حذيفة بن اليمان لأبي بكر نافقت يا أبا بكر. ومعنى كلامه: أننا نكون مع رسول الله بحال، فإذا توجهنا إلى بيوتنا زاولنا نساءنا وأبناءنا، فشهدنا في أنفسنا حالى أخرى، رآها سيدنا حذيفة رضى الله عنه نفاقاً، فقال له سيدنا أبو بكر: نافقت يا حذيفة واشتد به هذا الوارد، حتى رفعه إلى رسول الله فقال له "لو تدومون على ما تكونون عليه معي لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم ولكن روحوا القلوب ساعة فساعة" [رواه أحمد والنسائي وأبو يعلى وابن حبان والضيا المقدسى في المختارة عن أنس] .

وإذا جالس الإنسان جاهلاً مغروراً، أعمى عيون بصيرته، وحجبه عن الله، فأنت أيها الأخ إذا أحببت أن تعرف معية الله لك، فانظر فيما أقامك، فإن آنسك بشهود آياته، وفرحك بفضله ورحمته، وأقامك في محابه ومراضيه، وجملك بأخلاقه الربانية، وأقامك نوراً لعباده، ومنحك شهود مقامات التوكل عليه، وتفويض الأمور إليه، واليقين الحق بوعده ووعيده، ودوام المراقبة في كل شيء لديها فاشكره على أن تفضل عليك بمعيته إياك، ووفقك لأن تكون معه.

الفصل السابع: أساس طريق آل العزائم

أساس طريقنا هذا محبة الله تعالى إعظاماً وإجلالاً، ومحبة رســول الله ﴿ ﴾ تسليماً وانقياداً، وإيثاراً كل مسلم على نفسه بأن يحب له ما يحبه لها، ويــؤثره عليها في الخير، لأنا جمعنا الله تعالى لنجدد ما خفى من معالم ســنة رســول الله ﴿ ﴾ علماً وعملاً وحالاً، ولنحيي ما اندرس من أنوار كتاب الله تعــالى علمــاً وشهوداً وتسليماً ورضاء، ونعيد الماضى، بما كان عليه سلفنا الصالح نفعنــا الله بهم ليكون الله تعالى معنا وعندنا، ونكون مع الله تعالى وعنده سبحانه. هذا وإن أخ من أحبابي في الله يجب عليه أولاً أن يحصل مالا بد منه من علوم الشــريعة المطهرة، ليعمل لله بما أمره، وليكون قدوة حسنة لأحبابه في الله، دالاً على الحق بعمله أولاً، وبقوله ثانياً وبحاله ثالثاً. فمن ترك العمل الذى به يكون عبــد الله تعالى عابداً، حرم السعادتين، ومن بين لغيره بياناً يخالف بيان رسول الله﴿ ﴾، أو عمل عملاً يخالف عمل رسول الله﴿ ﴾، أو تحلى بحال ينكره العــارفون بــالله تعالى، كان ضالاً مضلاً، مظهراً لإبليس عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعــين ومن بين الحق بلسانه، ولم يعمل به بجوارحه ونفسه، كــان فتنــة للمســلمين. وكالسراج الذي يحرق نفسه ويضيء لغيره، لأن الناس أسرع تقليــداً للعمــل منهم للعلم، وإنما أفسد العقائد، وفرق المجتمع الإسلامى، عالم اللسان جهــول القلب، يأمر الناس بالخير ولا يعمله، فيقتدى به الناس، ولا ينتفعــون بعلمــه لعملهم بعمله، وليس هؤلاء بأئمة للمسلمين، لأهم أعوان الشــيطان، وعبيــد الدنيا وخدمة الملوك، ولو كانوا كفاراً.

الفصل الثامن: إياكم وأهل الغواية

إخواني: إن كثيراً ممن ينتسبون إلى طريقي، ويدعون صحبتي، أعماهم الحظ، وأضلهم الهوى وقادهم الشيطان الرجيم، فنسبوا أنفسهم إلى المعرفة مع جهلهم، وإلى الكشف مع بعدهم، فأضلوا كثيراً من الإخوان بزخرف القول غروراً، فتركوا الصلاة والصيام، ووقعوا في شر من ذلك، وهو القول بالحلول، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ ﴾ (التوبة: ٣٤) وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ (المنافقون: ٤) وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ (البقرة: ٢٠٤-٢٠٦).

وكلنا يعلم أن كل آية نزلت في بني إسرائيل جرت بذيلها أهل الغواية. قال رسول الله : "افترقت بنوا إسرائيل إلى اثنتين وسبعون فرقة وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا ما أنا عليه وأصحابي" [رواه الدارمى في كتاب السير الباب ٧٥ وأحمد في الجزء الثالث صفحة ١٢٠،١٤٥]. وهم الآخذون بالعزائم من آل العزائم.

الفصل التاسع: الوصية

أنا إن شاء الله تعالى مسافر إلى الحج، لأن الوقفة في هذا العـــام بالجمعـــة، اقتداء برسول الله، لأنه حج حجة الوداع وكانت الوقفة بالجمعة. وإني واثق أن الله يحفظ أهل الصدق من أحبابي في الله، من فتنة لهؤلاء الضـــالين، ولكـــن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٥٥) فأوصيكم يا إخوانى أن تكونوا على بصيرة من أمركم، فإنكم إنما صحبتمونى في الله لنجدد السنن، ونسارع إلى محاب الله ومراضيه، والعهد بينى وبينكم أنى عبد لست معصوماً، فإذا خالفت السنة وجب عليكم قهري على العمل بها، شـــفقة على ورحمة بي، فإن أبيت أن أرجع إلى الحق، وجب عليكم معاداتي ومحـــاربتي، ومخالفتكم لي نجاة لأنفسكم من الاقتداء بمضل، فاحتفظوا يـــا أولادي عهـــدي إليكم في غيبتي عنكم، والله تعالى خليفتي عليكم، واقبلوا مني نصيحتي وهى أن كل أخ في الله لي منتسب إليَّ، يدعوكم إلى طريقي، فلا تقبلوا منه إلا إذا كـــان معه أجازة مني، ممضاة بإمضائي، فإذا أظهرها، وتحققتم من صدقة فهذا أمـــري أنا، ولا اطلاع لي على الغيب، فزنوه بعد ذلك بالموازين التي عاهدتموني علـــى العمل بها، وهي كتاب الله تعالى، وسنة رسوله، وعمل السلف الصالح من أئمة المتين، فإن خالف فحالفوه، واهجروه، واستعيذوا بالله من شره.

الفصل العاشر: حقيقة النسب

واعلموا يا أبنائى: أن النسب نسبان: نسب روحـــاني، ونســـب طـــيني. فاحذروا أن تكرموني في أقاربى بالتسليم والانقياد، إلا إذا كانوا عاملين بما كان عليه سلفنا الصالح، مجددين للسنة، عاملين بها، ولكني أحب أن تكرموني فـــيهم

بالنصيحة والموعظة، ليكونوا أنجماً مشرقة لبيان السنن والعمل بها، واعتبروا نجد الله عن خليله في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ (التوبة: ١١٤) وبخبر الله عن نوح عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (هود: ٤٧).

ويقول النبي : "إن بني فلان ليسوا لى بأولياء "يعنى جماعة من بني هاشم" إنما ولى ورسوله وصالح المؤمنين ولكن لهم نسب أبله ببلاله" [رواه سلم في كتاب الإيمان الحديث ٣٤٨، وللبخاري في كتاب الأدب الباب ١٤، والترمذي في كتاب تفسير سورة الشعراء]. وإني أبرأ إلى الله تعالى من كل قريب، وصاحب ورفيق، يخالف السنة والكتاب، ويعين على مخالفتها، وقد حذرنا الله تعالى بقوله لنا: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤).

فاحذروا أهل الفتنة من الجاهلين الشاطحين، ولو استدرجهم الله تعالى، فأظهر على يدهم العجائب، واحذروا علماء الدنيا المفتونين بحب المال والجاه والرياسة وقد ورد في الخير "إذا رأيتم العالم على أبواب السلاطين فاحذروه فإنه لص" [رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة]. وتمكسوا يا أحبابى في الله بالسنة وعضوا عليها بالنواجذ، وفروا من كل متساهل بها، واعلموا حق اليقين، أن الله ما أمرنا بعمل على لسان رسول، ونهانا عنه على لسان ولي، ومن

تأول القرآن والسنة تأويلاً مؤدياً إلى مخالفة الشرع فهو شيطان مارد، فاحفظوه، واتقوا الله حق تقاته، بأن تطيعوه فلا تعصوه، وتذكروه فلا تنسوه، وتشكروه في تكفروه،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

لِي نِسبَةٌ أَظْهَرَتْ مَعْنَاهُ فِـي ٱلْمَبْنَـىٰ ... مِنْهَا ٱتِّصَالِي بِهِ مَـنْ يَـدْرِهَا يَهْنَـىٰ
وَهْيَ ٱلْعُبُـودَةُ تَحْقِيقِـي بِمَرْتَبَتِـي ... مِنْ فَوْق أَعْلَىٰ وَمَرْتَبَتِي مِـنَ ٱلأَدْنَـىٰ
لاَ لَبْسَ يَحْجُبُنِي إِنْ شَمْسُهُ طَلَعَـتْ ... فِي رَقٍّ مَنْشُورِهِ عَنِّـي بِهَـا أَفْنَـىٰ
سِيَّانِ مَشْهَدُ رَسْمِي فِـي مُـوَاجَهَتِي ... وَمَشْهَدِي حُسْنَ مَحْبُوبِ ﴿أَوْ أَدْنَى﴾
حَيْثُ ٱلْجَمَالُ عِيَانًا لِي بِـلاَ حَجْـبٍ ... فِي رَقِّ ذَاتِي وَرَقِّي بَـرْزَخُ ٱلْمَعْنَـىٰ
سِـرُّ ٱلظُّهُورِ تَجَلَّـىٰ لِي مُنَزَّلَـةً ... فِـي ظِـلِّ رَسْمِي لِيَجْذِبَنِي فَـأَتَغَنَّىٰ
فِي ٱلْمَثْنَوِيَّةِ آيَـاتُ ٱلظُّهُـورِ تُـرَىٰ ... أَتْلُو ٱلْمَثَـانِيَ وَٱلتَّـالِي لَهَـا يَغْنَـىٰ
قَدْ يَقْشَعِرُّ بِهَـا جِلْـدِي إِذَا تُلِيَـتْ ... بَـلْ يَطْمَـئِنُّ بِهَـا قَلْبِـي إِذَا حَنَّـا
وَهْيَ ٱلْمَثَانِي وَفِيهَـا ٱلْمَثْنَوِيَّـةُ لِـي ... عَبْدٌ تَجَمَّلَ مِـنْ أَسْـمَائِهِ ٱلْحُسْـنَىٰ
قَدْ كَانَ مَلَكُوتُهُ رَوْضَ ٱلشُّهُودِ لَـدَىٰ ... كَشْفِ ٱلْحِجَابِ وَصَارَ ٱلْقُـدْسُ لِـي
عَايَنْتُ فِي ٱلْجَمْعِ غَيْبًا كَانَ يَسْـتُرُهُ ... مَعِي عَلَيَّ وُجُودِي وَمَنْ ذَاقَ ٱلصَّفَا جَنَّا
سِتْرِي عَنِ ٱلْكَوْنِ وَٱلآثَـارِ يَجْعَلُنِـي ... فِي جَنَّةِ ٱلْكَشْفِ مَجْنُونًا بِمَنْ أَغْنَـىٰ
هَٰذَا ٱلْجُنُونُ نَعَمْ حُكْمُ ٱلْجَهُولِ عَلَـىٰ ... مَنْ ذَاقَ صَافِي طَهُورِ شَرَابِهِ ٱلأَهْنَـىٰ
وَهْوَ ٱلصَّفَاءُ وَعَقْلُ ٱلْحَـقِّ يَعْقِلُنِـي ... عَنْ حَجْبَتِي بِحَضِيضِ ٱلْعَالَمِ ٱلأَدْنَـىٰ
عَقْلٌ بِـهِ أَتَلَقَّـى ٱلْغَيْـبَ مُتَّضِـحًا ... وَٱلْقُدْسُ لِلرُّوحِ حَالَ ٱلإِجْتِبَا سَـكَنَا

الباب الحادى عشر: أسباب تنوع الأفكار عند الصوفية

الفصل الأول: الإنسان خلق وسطاً

الإنسان كله عجب! خلقه الله وسطاً بين عالم ملكه وملكوته، فهو بمادته واحتياجه حيوان في رتبته بحسب كمالياته، ومن حيث قواه النفسانية ملك روحاني، يقبض أنهار الرحمة والحنان، والخير والعرفان، أو شيطان أبلس إلى أرض الفساد، وأخلد في حضيض الشر والانتقام، فبينما تراه حيواناً داجناً، وإذا تراه سبعاً كاسراً، أو مشاكة نورانياً لبيان سبل الخير والرشاد، فسرعان ما تتنوع أفكاره بأقل منبه، فبينا تراه منقاداً سميعاً مطيعاً، وإذا بك تراه نافراً هلوعاً جزوعاً.

الفصل الثانى: أسباب تنوع الأفكار

السبب الأول: تنوع تحتقر فيه عظائم الأمور، وشدائد الآلام، وهذا التنوع يدوم وينموه، وسببه بهجة الروح بعالمها المجانس لها، فتفر من مفارقهـا الـذى حجب عنها أشعة أنوار عالمها العلوي، وتأبى إلا الاتصال به، فإذا وصلت عليه، وابتهجت به، أحبته، وغارت له، واهتمت أن تمحو ما يحجبه عن النفوس، وما يخالفه من العوائد والأخلاق، والعقائد والمعاملات، وأصحاب هذه النفوس هم الصديقون، أبدال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهـم أسـباب الحيـاة الروحانية، وموقظو العالم الإنساني من رقدة الجهالة ونومة الغفلة

وهم أنواع: منهم أهل العلم والعرفان والحكمة، الدالون على الله بـالقول والعمل والحال، ومنهم أنصار الله وأنصار رسوله صـلى الله عليـه وسـلم، المجاهدون في سبيل الله بالمال والنفس، ومنهم الصالحون المصلحون، المهـذبون للأخلاق، المزكون للنفوس، ومنهم الأسخياء أهل الجود والنجـدة، المواسـلن للبؤساء، الرحماء بالفقراء والأيتام، ومنهم أئمة الهدى، القـائمون بحـدود الله، المنفذون لأحكام الله، الحافظون لشريعة رسول الله ﴿ﷺ﴾، ومنهم أهل القلـوب المطمئنة بذكر اله والنفوس الساكنة إلى منفسها، وكل مسلم عامل بالكتـاب والسنة فهو منهم بحسب مرتبته.

السبب الثاني: مما ينوع الأفكار شهوة قاهرة، يدعو لها الفـراغ والجـدة، فترى الجبان بها جريئاً، والمقتصد مسرفاً، ولا يسلم من هذا المـرض إلا مـن أسعدهم الله بصحبة العلماء الربانيين، وتلك الشهوة تصغر أمامهـا المخـاوف كلها، فلا يبالي من تسلطت عليه من الحق، ولا من الخلق، وشر باعث عليهـا الخمرة حفظنا الله من شرورها.

السبب الثالث: أمل محقق الوصول، كطلب حق يعقد الطالب أنه له، فإذا كان الحق لجماعة أو لأمة وهو خير عام، ونفع شامل، كان ذلك التنوع شديداً جداً، ينسي أهله حياهم.

فإذا كمل هذا التنوع في مجتمع استعرت ناره، فلا تطفأ إلا بنيل هذا الحق، وإن كثيراً من أهل الحكمة إذا ظهرت علامات هذا الباعث، أسرعوا في تلطفه؛ فإنه إذا استحكم كان سبباً في احتقار المانعين للحق، أو زوال ما بيـــدهم، وإن هذا التنوع كم أزال ملكاً من قوم لآخرين، وكم محا مجداً من مجتمـــع لآخـــر، لحرص من بيده حق غيرهم، وتنوع أفكار أصحاب الحق تنوعاً ينسيهم الرحمـــة والعاطفة والصحبة، هذا التنوع سبب في تغير الأحوال، وانتقال المجد من أمـــة لأمة، ورفعة قوم وخفض آخرين، فترى المجتمع، أو الأمة، بينما تتاخم الســـماء مجداً، وتنسى الربوبية كبراً، آمنة بما لها من عدد وعدد، نافذة الكلمة على العالم، وإذا بها قد اعتورها الخلل داخلاً وخارجاً من حيث لا تعلم، ليقيم الـــرب جل جلاله حجة على أنه الملك القوى، المتكبر العلي، وعلى أنه خالق الخلق، بيده الملـــك والملكوت، يهب الملك لمن يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، هذا التنـــوع لـــيس للإنسان فيه يد، إنما هي يد العناية الإلهية، تجعل الضـــعيف المستضـــعف قويـــاً متقوياً، قدرة حيرت العقول، وأعجزت الأفكار، وإنا لنرى بأعيننا حوادث تلك السنين، وكيف كان أمس، وكيف صار اليوم، وأمر سماوي لا قـــدرة لســـان الأرض على رده، إلا بتنفيذ ما قدره الله قال الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن: ٢٩) فهو سبحانه وتعالى يعز من يشاء، ويذل من يشاء بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، ولكن من سعادة المجتمع أو الأمة عند هـــذا التنـــوع، أن يكون لها أئمة زكت أنفسهم من شوب الهوى والحظ، وتطهرت عقـــولهم مـــن

حب الذات، ورخص المجد الأفرادي في نظرهم، حرصاً على الخير العام، ولديها يفوزون بكل قصودهم.

السبب الرابع: تحقق اليأس من نيل مقصد ينال من الغير، وبذلك تتنوع الأفكار، فتتغير الأحوال، وهذا المرض سهل العلاج، لأن المريض به إذا تنسم بارقة أمل، أو نيل بعض قصده، رجع إلى ما كان عليه.

الفصل الثالث: المختار من اختاره الله

أولاً: مختار الله تعالى

تتفاوت الرجال بقدر خصوصياتهم، وخير خصوصية يجعل الله بها عبداً من عباده أن يقيمه مقام رسله – عليهم صلوات الله أجمعين– لبيان ما أبهم على عباده، وتفصيل ما أجمل، ومتى أقام الله رجلاً هذا المقام جملة بالأخلاق التي بها يألف ويؤلف، ومنحه الحال العلية التي ينوع بها الأفكار، حتى يتضح الخير الحقيقى، والسعادة الحقيقية، اتضاحاً يجعل من وفقهم الله تعالى يسارعون إلى الحق، من غير كلفة، ويحبون الحق لهم وعليهم، مع الحرص على خير الخاصة والعامة، واحتقار ملاذهم في نيل الحق والعمل به وله، وليس كل من أمكنه أن يعمل للخير بمختار، فكم من عامل للخير ونفسه تنازعه منازعة تؤدى إلى انقلاب الخير إلى شر، ومثل هذا لا يكون مختاراً لله تعالى، ولو اختاره الناس، وكم من خامل غير نابه هو مختاراً لله تعالى، وهو الرجل الذى يمكن أن يكون على يده الخير، ومثل هذا لا ينقض إن طلب لنفسه السؤدد، وتوليه عظائم الأمور؛ لأن سيدنا يوسف قال ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ (يوسف ٥٥) لما يعلمه في نفسه من أنها لا تقهره إذا تمكنت، ومن علم في نفسه الرغبة فيما يلائمها من السيادة أو الحظ، والشهوة وهو عامل بإخلاص للخير، واختاره الناس، فالواجب عليه أن يكل الأمر لغيره حرصاً على نجاة نفسه، ونجاة الخلق من رعوناتها، وخير يشوبه الشر ليس بخير في الحقيقة ونفس الأمر ،وعامل لا يهمه نجاة نفسه وسعادة من يعمل لهم عدو نفسه، فكيف يكون صديقا لغيره؟

ثانياً: الخير الحقيقي

هذا وللحس سلطان على العقل وعلى النفس، فقد يحكم الحس على الإنسان بحكم بحسب ما شهده، وتكذبه الحقائق، وحكم لا تؤيده الحقائق باطل، وإذا اختار الله عبداً فأقامه في محابه ومراضيه، فالأولى لأهل الإيمان أن يختاروه، ولا ينبغي أن يضع المسلم ثقته إلا فيمن يراقب الله تعالى، ويحافظ على شريعته، ووصايا رسوله وخير لا يؤدى إلى رضاء الله تعالى ورضاء رسوله هو شر، وإن نال العامل له رضاء جميع الخلق، وكيف يكون عاملاً للخير من لا يراقب الله تعالى؟ وما هو الخير الذى يعمل له؟ أخير دنيوى يزول وتبقى آثامه؟ أم لخير شهوانى يلبس فاعله الخزي؟ أم لجاه وسيادة في الكون يجعل صاحبه يوم القيامة يتمنى أن يكون تراباً؟ إنما الخير الحقيقى أن يوقظ العامل أهل عصره من نومه الغفلة عن الآداب الشرعية، ورقدة جهالتهم بأنفسهم وبقدر نعم الله تعالى عليه، حتى يكثر أهل الخير، ويقل أهل الباطل، وبقلتهم قد يزول الباطل أو يختفي.

كل إنسان يطلب الخير ويحبه، ولكن جهل الإنسان حقيقة الخير، أو طريقة الموصل إليه فخير الناس للناس من عرفهم الخير الحقيقى، وبين لهم منهاجه، وإن احتقره من ليسوا من الناس، وشر الناس من فرح بما ناله من المكانة عند الناس، وهو في غضب الله تعالى، فيهلك ويهلك غيره.

ثالثاً: الواجب على كل مسلم

والواجب على كل فرد من المسلمين، أن يجتهد كل الاجتهاد في نجاة نفسه في الدنيا والآخرة،وبترك التقليد إلا لرسول الله الهدى، ممن وصفهم القرآن،

وأثنى عليهم، ثم يترك التسليم، إلا لرسول الله، لمن يجعلهم الله تعالى حتى صاروا أشبه الناس به، ولا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشـــهوراً، وإمــا خافياً مستوراً، وطالب الحق ييسر الله له من يدله عليه، فإن الله تعــالى أكــرم الأكرمين، لا يطلبه عبد بإخلاص وصدق ويرده، والمقلد من غير بصـــيرة مــن الهمج الرعاع، أتباع كل ناعق، الذين لم يهتدوا بــالعلم، ولم يقصـــدوا الخـــير الحقيقي لأنفسهم كالغوغاء الذين إذا سمعوا الموسيقى أسرعوا إليها، وتركوا أهم الأعمال الضرورية، وإذا علموا بفرح أو خصومة اجتمعوا من غـــير قصـــد، وقلدوا غيرهم وكل ذلك لنقض التربية الدينية.

ولو ذاقوا حلاوة الإيمان ولذة التقوى، لخدمتهم الملائكة، ولدانت لهم دول الأرض جميعها، كما كان ذلك لسلفنا الصالح، وكانوا أقل عـــدداً، ولكنـــهم أقوى يقيناً وأعظم خشية من الله تعالى فكان الله معهم، وكانوا منع الله تعــالى، وهم أصفياء الله، المختارون له سبحانه، أسأل الله أن يتفضل علينا بما تفضل به عليهم، وأن يعيد لنا هذا المجد بمنه وكرمه آمين.

مَنَحْتَ ٱلْمُجْتَبَيْنَ هُدًى جَمَالاَ ... مَنَحْتَهُمُو ٱلْبَيَانَ وَٱلاِتِّصَالاَ
جَذَبْتَ قُلُوبَهُمْ عَمُرَتْ بِنُورٍ ... فَنَالُوا ٱلْحُبَّ أَوْلَيْتَ ٱلْوِصَالاَ
وَهَبْتَهُمُو ٱلْعُلُومَ عُلُومَ غَيْبٍ ... يُتَرْجِمُ فَرْدُهُمْ إِنْ قَامَ قَالاَ
يُبَيِّنُ سِرَّ قُرْآنٍ مَجِيدٍ ... وَفَضْلُ ٱللَّهِ لِلأَفْرَادِ وَالَىٰ
بِحِلِّهِمُو بِرِحْلَتِهِمْ يُلِيحُوا ... عُلُومَ ٱلْغَيْبِ وَٱلْمَحْبُوبُ نَالاَ
هُوَ ٱلْعِلْمُ ٱللَّدُنِّى مَنْ يَنَلْهُ ... يَفُزْ بِٱلْوَصْلِ قَدْ يَعْلُوهُ حَالاَ

لِأَنَّ ٱلنُّورَ نُورَ ضِيَا ٱلتَّجَلِّي   أَضَاءَ ٱلْقَلْبَ فَٱنْفَعَلَ ٱنْفِعَالاَ

يُجَمِّلُ مَنْ يُحِبُّ بِسِرِّ حَالٍ   مِنَ ٱلْمُعْطِي مِنَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ

يَكُونُ ٱلنُّورَ فِي دُنْيَا وَأُخْرَىٰ   سِرَاجًا مُشْرِقًا يُجْلَىٰ مِثَالاَ

يُجَدِّدُ سُنَّةَ ٱلْمُخْتَارِ يُبْدِي   مِنَ ٱلْقُرْآنِ أَسْرَارًا جَمَالاَ

الباب الثاني عشر: أصول الفضائل والخلق والتخلق

الفصل الأول: أصول الفضائل

وهي العقيدة الحقة، التي ينتج عنها كل خير في الدنيا والآخرة، ومأخـــذها القرآن والسنة. والعبادة بإخلاص لله تعالى، التي ينال بها الإنسان الســـعادة في الدنيا والآخرة، ومأخذها عمل رسول الله ﴿ ﴾، والأئمة الهداة بعده، والأخلاق الجميلة، بحسب ما تقتضيه الشريعة المطهرة، وفضائل الأخلاق: العفة والشجاعة والعدل والكرم .والمعاملة الحسنة التي يراقب فيها العامل عند معاملته وجه الله تعالى، والمسارعة إلى نيل رضوانه الأكبر وهي التي تنتج للإنسان فراغ قلبه من العناء، وراحة بدنه من التعب، ونيل النعيم المقيم يوم القيامة.

الفصل الثاني: الخلق والتخلق

من نظر إلى الإنسان بعين البصيرة، ونظر إلى الكون بعين الفكرة، تحقق أن الكون من أعلى إلى أدنى كالإنسان، لأن العالم جميعه من العرش إلى الفرش يمثل إنساناً واحداً، فالعرش مثال القلب المحيط بالإنسان، حيطة علم وتأثير، والكرسي كالدماغ لأن الدماغ محل انبعاث الإرادات، والسموات كالرأس، والنبات كشعر الإنسان والبحار والأنهار كدم الإنسان، والأشجار كعروقه، والحيوانات كلحمة، والملائكة كنفسه الناطقة، والكواكب الثابتة كجوارحه الثابتة، والكواكب السيارة كجوارحه المتحركة، والحياة كيقظته، والموت كنومه، والصيف كغضبه، والربيع كصفائه، والشتاء كجبنة، والخريف كاعتداله، وفيه سر مصون فوق الكون، أشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (ص: ٧٢). فهو في أسفل سافلين إن أخلد إلى الأرض واتبع هواه، وفى أعلى عليين إن زكت نفسه وفر إلى الله، فقد يبلغ الإنسان في رقيه منزلة يفوق فيها الملائكة، وقد ينحط في هوة إلى حضيض الأرذلين، وأسفل سافلين في الدرك الأسفل من النار، وبين هاتين المنزلتين مقامات ومنازل، وأطوار ومراحل...

ولما كانت هذه حقيقة الإنسان، والإنسان مركب من الأخلاط الأربع: النار، والهواء، والماء، والتراب، التي تشير إلى العناصر الأربع الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، فهو مقهور لكل ما غلب عليه، لذلك وجب عليه أن يحصل ما به كمال أخلاقه، حتى يكون وسطاً بين العالم، جامعاً للكمالات كلها، ولا سبيل إلى نيل هذا المجد العظيم إلا بمجاهدة النفس، وقهر الحقائق التي تميل به إلى

الدرك الأسفل من النار، لتنقاد إلى الحقائق العلوية، التي تسارع به إلى رضوان الله الأكبر ووسيلة ذلك التخلق بأن يتكلف عمل الفضائل، مهما نازعته الحقائق السفلية، فيعفو عند ثوران الشهوة، ويعدل عند ثورة الغضب، ويجود عند الاحتياج، وينفع عند الضرورة، حتى يحصل له ملكة الفطرة، وجمال الخلق، ومن لم يتواجد لا يجد، ومن وجد استراح من التواجد، ومن أنكر تلك الحقائق جهل حكمة بعثة الرسل، لأن الإنسان مكون من العناصر كما قدمناه، فليس مفطوراً على الخير، ولا على الشر، بل هو قابل لكل حقيقة منهما، والمفطور في الحقيقة هو الملك أو الشيطان، لأن الملك من عنصر نوراني، والشيطان من عنصر ناري، فالملك مفطور على الخير والطاعة، والشيطان مفطور على الشر والمخالفة، والإنسان قابل لهما، لذلك بعث الله الرسل، وأقام ورثتهم مقامهم، والإنسان مسكين ينجذب بكليته إلى ما يقتضيه زمانه ومكانه، فإذا وجد بين الوحوش كان وحشاً كاسراً نفوراً عنيداً، إذا وجد بين أهل الصفا كان أشبه بالملائكة، فإذا فارقهم نزعت نفسه إلى ما يقتضيه وقته، لذلك ترى الإنسان إذا صحب أهل التقوى صار تقياً، وإذا فارقهم إلى أهل الفساد كان منهم أو معهم، ومن رغب في نيل الخير جاهد نفسه، وقهرها على ملازمة أهل التقوى، حتى يبلغ درجة الكمال الإنسانى الذى يكون فيه كالمعدة النفيس، الحافظ لرتبته فلا يتغير، ولو ألقى في السبخ، أو كالمسك الذى يطيب كل مكان يوضع فيه، ومع بلوغ الإنسان درجة الكمال؛ يجب أن يتمثل بأكمل منه، فيتشبه به إن كان بعيداً عنه بموت، أو غربة؛ أو يجتهد أن يديم صحبته حتى يبلغ كمال درجة المراقبة والرعاية، وهو الوارث لرسول الله، الممد بروح الإلهام. وخير وسيلة للأخلاق، أن ينظر إلى الفضائل المحبوبة في غيره، فيلزم بها نفسه وإلى القبائح المذمومة في

غيره، فيكرهها من نفسه كما كرهها من غيره.

قَرَأْتُ ٱلْمَعَانِي سُطِّرَتْ فَوْقَ هَيْكَلِـي فَقِهْتُ مَقَامِي حَيْـثُ قَـدْرِيَ أَوَّلِـي

تَرَنَّمْتُ تَسْبِيحًا لِرَبِّـي فَـلَاحَ لِـي حَقَـائِقُ تَنْزِيـهٍ بِغَيْـرِ ٱلتَّـأَوُّلِ

شَـهِدْتُ ٱلْبَـدَائِعَ أَنْبَـأَتْنِي بِغَيْبِهَـا فَشَاهَدْتُ مَضْنُونًا وَعَايَنْـتُ مَنْزِلِـي

شَهِدْتُ مَقَامِي قَبْلَ سُـورِ عَنَاصِـرِي وَعَايَنْتُ قَدْرِي فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمُنَـزَّلِ

أَنَا صُورَةُ ٱلرَّحْمَٰنِ لِـي كُـلُّ كَـائِنٍ وَلِلَّهِ قَدْ أُبْـدِعْتُ تَفْصِـيلَ مُجْمَلِـي

لَهُ بِٱلْيَدَيْنِ صَـاغَنِي قَبْـلَ نَشْـأَتِي وَلِي سَخَّرَ ٱلْأَكْـوَانَ جَمَّـلَ مَـوْئِلِي

تُجَاذِبُنِي تِلْـكَ ٱلْعَنَاصِـرُ مُقْتَضَـىٰ طَبِيعَتِهَا تَدْعُو ٱنْحِـدَارِيَ مِـنْ عَـلِ

وَسَابِقَةُ ٱلْإِحْسَـانِ تَـدْعُو لِرِفْعَتِـي تُنَـادِي بِـإِخْلَاصٍ أَيَـارُوحُ أَقْبِلِـي

عَنِ ٱلشُّكْرِ عَجْزِي حَيْثُ أُولِيتُ حُبَّـهُ وَإِحْسَانَهُ بِٱلْجُودِ مَحْـضَ ٱلتَّفَضُّـلِ

الفصل الثالث: حسن الخلق سعادة في الدنيا والآخرة

الأخلاق الحسنة إما فطرية، وإما تكليفية. فالفطرية منها تحصل لصفاء جوهر النفس؛ لأن جوهر النفس إذا كان نورانياً يقبل الخير، ويرد الشر، ويكون مجملاً بالرحمة والرأفة، والعاطفة والبر والإحسان، فينشأ الإنسان محباً للخير وأهله، معادياً للشر وأهله، شكوراً في الرخاء، صبوراً في البلاء، يعفو ويصفح، ويؤثر أخاه على نفسه، ويجازى السيئة بالحسنة، فيحبه الله والناس أجمعون، ويعيش الناس منه في سلامة، وهو منهم في أمان، لا حسود للنعمة، أو شيطان النزعة، وهذا المفطور على جميل الأخلاق، إن أعانه الله بمرشد كامل، ورث أحوال الأنبياء، ومنحه الله التخلق بأخلاقه العلية، وإن عاش في مجتمع فاسد الأخلاق حفظه الله من شرورهم، وإن أفسدوا عليه حياته لمخالفتهم إياه في المعاملة، وهذا أشبه بسراج بين العميان، أما المتخلق فإما أن يكون تخلق خوفاً، أو طمعاً، فالذي يخاف من السوط، ويطمع في الدنيا فهذا قد يترك دينه، خوفاً أو طمعاً، فيرتكب من الدنايا والسفاسف ما يتبرأ منه الحيوان الأعجم، فإن الحيوان لا يبالى أن يرفع صوته الدال على نوعه أمام أشرف الحيوانات، ولكن هذا المتكلف قد يترك دينه الحق إذا خاف أو طمع، وقد يرتكب أكبر المنكرات إذا أمن جانب الخلق، وقد يضر أمة بأسرها إذا نال خيراً، ولو من أعدى عدو لأمته، وهذا يراه الناس إنساناً مسلماً، وهو في الحقيقة شيطان منافق، وعلاج هذا المرض سهل، إذا يسره الله تعالى قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٧٣) وأما الذى يخاف من الله فهو من الذين آمنوا بالآخرة، فطمعوا في الجنة، وخافوا من النار، فيسارعون إلى

الطاعات للنعيم المقيم، ويتباعدون من المعاصي خوفاً من الجحيم، وقد كلف الله العلماء أن يبينوا للناس طرق الخير، وموارد السعادة؛ لأنه سبحانه وتعالى أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ليحصل الطمع والخوف، وأهل النفوس الزكية يعلمون الأخلاق الحسنة لأنفسهم من الناس، فإذا أحبوا شيئاً من أعمال ومعاملات وأخلاق الناس عملوا بها وإذا كرهوا شيئاً من ذلك تركوه. والمجتمع الإنساني مدرسة الصديقين، وكل إنسان يحب الفضائل والكمال الإنساني، والعمل بها، وخير ما يتقرب به العبد خلق حسن، يعامل به غيره، وفي الحديث الشريف "ألا أخبركم بأحبكم إلىّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون ألا أخبركم بأبغضكم إلىّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة قال الثرثارون المتفيهقون الذين لا يألفون ولا يؤلفون" [رواه البخارى في كتاب فضائل الصحابة الباب ٢٧ وكتاب المناقب الباب ٢٣ والترمذى في كتاب البر الباب ٧١، وأحمد في الجزء الرابع صفحة١٩٤،١٩٣]. والأخلاق الجميلة هي أخلاق رسول الله، وغيره هي أخلاق الشيطان. وكل مسلم يحب رسول الله يجتهد أن يتخلق بأخلاقه ولو تكلف، ليكون من أهل معيته .

حُلَلٌ مِنَ ٱلْعَلْيَا عَلَى ٱلأَفْرَادِ تُعْطَى مِنَ ٱلْوَهَّابِ مَحْضَ وِدَادِ
يَتَجَمَّلُونَ بِهَا فَيَعْلُو قَدْرُهُمْ لِمَقَامِ أَعْلَى حَضْرَةِ ٱلإِمْدَادِ
لِلْفَرْدِ بَعْدَ ٱلْفَرْدِ حُلَلُ جَمَالِهِ لَيْسَتْ لأَهْلِ ٱلْجَدِّ وَٱلْوُرَّادِ
وَهُمُ ٱلْقَلِيلُ ٱلنَّاظِرُونَ جَمَالَهُ وَٱلْعَالِمُونَ طَرَائِقَ ٱلإِرْشَادِ
قَدْ جُمِّلُوا بِجَمَالِ أَخْلاَقِ ٱلْعَلِي وَتَقَرَّبُوا فَضْلاً بِغَيْرِ جِهَادِ
سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْهُ ٱلسَّعَادَةُ عِنْدَمَا ظَهَرَتْ شُئُونُ ٱلإِسْمِ بِٱلإِيجَادِ

وَلَهُمْ تَجَلَّىٰ ظَاهِرًا بِنَزَاهَةٍ   فِيهِمْ عَلَىٰ سِينَا بِغَيْرِ بُعَادِ

وَأَبَاحَهُمْ سِرَّ ٱلْغُيُوبِ فَعُلِّمُوا   عِلْمَ ٱلْيَقِينِ بِحُظْوَةِ ٱلْإِسْعَادِ

وَسَقَاهُمُو هَٰذَا ٱلطَّهُورَ بِقُدْسِهِ   فَتَجَرَّدُوا عَنْ نِسْبَةِ ٱلْأَعْدَادِ

عَيْنُ ٱلْيَقِينِ شُهُودُهُمْ وَمَقَامُهُمْ   حَقُّ ٱلْيَقِينِ عَلَىٰ سَبِيلِ ٱلْهَادِي

أَخْلَاقُهُمْ أَخْلَاقُهُ وَقُلُوبُهُمْ   قَدْ عُمِّرَتْ مِنْ نُورِهِ بِوِدَادِ

زَهِدُوا ٱلَّذِي يَفْنَىٰ بِكَشْفٍ صَادِقٍ   فَتَجَمَّلُوا مِنْ مُنْعِمٍ جَوَّادِ

ٱلْحَمْدُ لِلْوَهَّابِ مَنْ أَنْوَارُهُ   بِٱلْفَضْلِ قَدْ ظَهَرَتْ لِعَيْنِ فُؤَادِي

وَصَلَاتُهُ وَسَلَامُهُ دَوْمًا عَلَىٰ   ذُخْرِي وَغَوْثِي فِي نَهَارِ مَعَادِ

وَٱلْآلِ وَٱلْأَصْحَابِ أَنْوَارِ ٱلْهُدَىٰ   وَٱلْوَارِثِينَ حَقِيقَةَ ٱلْإِرْشَادِ

الفصل الرابع: الدنيا والآخرة

كل الأنواع الحية تحب الخير، وتسارع إليه، وأكثر تلك الأنواع يعمل ليوم بعد يومه، ولا ترى نوعاً يعمل ليومه الذى هو فيه إلا الحيوانات الداجنة، والحيوانات المجترة، وأكثر أنواع الحيوانات يدخر قوته، كالنمل وغيره، فكأن الأنواع الحية تعمل ليوم بعد يومها، وانفرد الإنسان بما منحه الله من العقل والنور بالإيمان بالغيب، فهو يعمل لليوم الآخر، مادام وسطا بين عالم الملك والملكوت، فإن انحط عن رتبته بين مراتب الوجود التحق بأسفل البهائم، فعمل للدنيا، وسارع إلى نيل شهوته وحظه، هو الذي يتمنى يوم القيامة أن يكون ترابا وذلك لأن الإنسان حيوان دينى، فهو بجسمه حيوان، وبما جمله الله فيه من نور العقل والروح أشبه بالملائكة، فتراه منجذباً إلى القوة التي تكون لها الغلبة فيه، فإذا غلبت القوة البهيمية كان شراً من الشيطان لأنه يستخدم النفس الناطقة في نيل حظوظه، وينحط إلى أسفل سافلين، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ **التين: ٤ - ٦** (التين: ٤–٦) ولهذا النوع من الإنسان علامات: منها أن تكون الدنيا أحب غليه من الله ورسوله ﴿ﷺ﴾، وأن يكون عاجل حظه ماحيا من قلبه نور الإيمان بيوم القيامة، فلا يخاف عذاب الله، ولا يرجو نعيمه، وأن يحب لحظة ويبغض لحظة، فيبيع دينه بدنيا غيره، ويترك طاعة الله بطاعة الحكام والأمراء، إن ذكر بيوم القيام صمت أذناه، وإن ذكر بالدنيا سارع إليها، كما قال تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (يونس: ٧). وهذا النوع من الناس، وإن

كان على صورة الإنسان، من استقامة القامة، وعرض الأظفار، ونعومة البشرة، إلا أن حقيقة أدنى من الوحوش الضارية، فهو شقي في الدنيا لحرمانه الاستفادة بحقيقته الإنسانية، من تحصيل الكمالات، ومن الحياة الطيبة التي يكون بها نافعاً لإخوانه، مقصوداً في الشدائد، مرجوا في النوائب، دالاً على الخير، مبيناً لسبل الله تعالى، ويحرم يوم القيامة من النعيم في جوار الأطهار من أولياء الله تعالى، مع ما يكون فيه من عذاب الله الأبدي، كل ذلك، لأنه اختار الدنيا على الآخرة، مع سطوع البرهان، ووضوح الدليل، إن الدنيا دار الفناء والعناء، وإنها لا لذة فيها لعاقل، وإنها دار تحصيل وتكليف ومجاهدة وتعريف، وإن الدار الآخرة هي دار المسرات، والبقاء في نعيم مقيم، ومن عميت بصيرته عن النظر في عاقبة الدنيا ومآلها، اتخذ الدنيا إلهاً من دون الله، فعاش عمره المحدود له فيها في خزي، وكد وبلاء، فإذا فارقها انكب على أم رأسه في الحطمة، فندم ولات حين مندم. الإنسان حيوان ديني بالفطرة، فهو على يقين من البعث بعد الموت، ومن الحساب بعد البعث، مهما كان عقله، لأن شر الكافرين ينسى الله تعالى عند الرخاء، فإذا قدر الله عليه الشدائد رجع إلى الله مقهوراً، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٥) فلا يلبث بعد تداركه بألطاف الله إلا ويرجع إلى كفره وضلاله.

أيها الإنسان: إنما أوجدك الله في تلك الدار الدنيا لتعرفه بما أظهره لله فيها، مما لا بد لك منه، فتعلم عجزك وضعفك، وفقرك واضطرارك، وقدرته وحكمته، وإحسانه وشكره، فتسارع إلى شكره، وإلى العمل لمحابه ومراضيه، فإذا جعلت نعم الله تعالى وسائل لمخالفته – سبحانه – وصار ما يوجب عليك

الشكر يؤدى إلى الكفر، وما يوجب الذكرى والفكر والحضور يؤدي إلى البطر والزهو والنفور، فسوف يأتي على الإنسان يوم يقول فيه، يا ليتنى كنت ترابـــاً. أيها الإنسان الدنيا دار تحصيل السعادة، والطريق الموصل إلى الله تعالى، ومهبط وحي الله، ودار أنبياء الله، ومحل مجاهدة أولياء الله، والشوق إلى الله، فـــاز مـــن حفظ أنفاسه فيها، وسعد من علم الحكمة من وجوده في هذا الكون، فســـارع إلى الخير، وهذه الدنيا أيضاً دار معصية الله تعالى، ومحل غضب الله تعالى، وهـــي دار البلاء والفتن، والكفر والبطر، هلك والله فيها، من أفردها بالقصد، وهـــي الضارة الغارة. أعاذنا الله من الفتن فيها، ووفقنا لمحابه ومراضيه.

الفصل الخامس: النجاة من الدنيا بصحبة المرشد الكامل

إنا وإن كنا نعتقد أن الأمر سبق، جفت الأقلام، وطويت الصحف، على ما هو كائن إلى يوم القيامة، إلا أنا نرانا مطالبين بتحصيل الخير للنفس والجسم، وخير النفس تحصيل العلم النافع، وخير الجسم العمل بالعلم، فالواجب علينا تحصيل العلم والعمل، ولا سبيل إلى ذلك إلا بصحبة العالم العامل، الذي نتلقى منه العلم قولاً والعمل فعلاً، إلا أنا لو حصلنا العلم من غير العالم العامل، غلب علينا حاله، فكنا كالمصباح، يضيء لغيره، ويحرق نفسه، ولما كان العالم العامل قليل الوجود وجب علينا أن نبحث عنه بقدر الاستطاعة، ونهاجر إليه، كما قال ﷺ: "اطلبوا العلم ولو بالصين" [رواه ابن عدى والبيهقى من حديث أنس] فإذا ظفرنا به، وقامت الحجة أنه العالم العامل حقاً، حرصنا على تحصيل العلم والعمل بصحبته، حتى نفوز بالنجاة يوم لا ينفع مال ولا بنون، وبقدر عنايتنا بالبحث عنه، يجب أن تكون عنايتنا بالأدب معه، حتى نتحقق أننا كأطفال رضع، لا غنى لنا عنه، ونحتاط من شياطين الجن والإنس في صحبته، فنبذل كل ما في وسعنا لنتفرغ لتكميل أنفسنا، غير ملتفتين إلى ما يشغل القلب والجسم.

الفصل السادس: آداب صحبة المرشد الكامل

يجب أن تعتقد أنه إنسان غير معصوم، وأنه من الأفراد الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ (الأحقاف: ١٦) فأثبت أن له سيئات، حتى يتميز عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فنكون بالنسبة لما يحصل منه، مما هو خلاف الأولى، كأننا موتى، لا نشعر، فلا نقلده، ولا ننكر عليه، ويجب ألا نسيء الظن به؛ فإن سوء الظن بالمرشد قطيعة، ولو كلفنا فوق طاقتنا، أو أظهر لنا ما يدل على بغضه، أو أهاننا في مجتمع نحب أن نعظم فيه، أو اختبرنا فيما تترعج منه القلوب، كالأمر بترك الأعمال الدنيوية، أو بالابتذال، أو بخدمة دنيئة، فإن المرشد يؤم السالك إلى حضرة رسول الله ﴿ﷺ﴾، ولا يحب أن يدخل على رسول الله إلا من اطمأن قلبه عليه بصحة عقيدته وخلقه، وبالقيام بالأعمال الشرعية، لأنه على بصيرة من أنه إذا أدخل على رسول الله ﴿ﷺ﴾ من لا عقيدة له، أو من هو سيء الخلق، تكون قوبة ذلك من رسول الله ﴿ﷺ﴾ على المرشد، لأنه الحاجب على باب الملك، لا يدخل عليه إلا من يحبه فيجب على السالك في صحبته أن يستر خصوصيته، أدباً مع المرشد، إلا إذا أمره المرشد بأن يظهر خصوصيته لجمع الخلق على الحق، وفي هذه الحال يسمع ويطيع، محافظاً على نفسه من الغرور، فإن كثيراً من السالكين يمنح لسان الحكمة، أو الهمة في شفاء الأمراض بإذن الله، والسيطرة على الجن بإذن الله، وشفاء القلوب من أمراضها بإذن الله، فيغتر، وربما رد عن الطريق فاستدرجه الله تعالى، فهوى في الحضيض الأسفل، ومن لم يكن مع المرشد كالميت بين يدي المغسل، لم يظفر بطلبته.

وماذا تقول في رجل باع دينه بدنياه؟ قال رسول الله: "ملعون ملعون قالوا من يا رسول الله؟ قال: من باع دينه بدنياه" أو كما قال ﴿ ﴾. لكن من طلب الآخرة فيسر الله له الدنيا إكراماً لدينه، فلم تغره ولم تضره، فهو من السعداء المقبولين، والهدايا لم يحرمها رسول الله . والصوفي لا يسأل ولا يرد، وهو أوثق بما في يد الله مما في نفسه.

ومن آدابهم في صحبته أن يؤثر إخوانه على نفسه، فإن آداب طريق الرجال المحبة، والاستقامة، والإيثار فمن أحب نفسه أو بقهاء، ومن خالف هلك، ومن لم ير أمر المرشد فأطاعه، أطاع شيطانه قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥) وأشد الخطر على السالك منازعة نفسه لأمر المرشد لأن السعادة كلها متوقفة على الفوز بصحبة المرشد وطاعته.

الفصل السابع: الدنيا مطية الآخرة

المسلم حقاً من عمل للدنيا ليستعين بها على الآخرة، لأن أصول الإسلام الخمسة لا تؤدى بمعناها الحقيقى إلا بالعمل في الدنيا للدين، والمسلم الحقيقي هو العامل لنفسه وآله، وإخوته المؤمنين، بقدر استطاعته لأن المسلم تكبر نفسه أن تكون عالة على غيره، ولو من أب وأخ وولد، حباً في العمل بشرائع الإسلام، ورغبة في أن يكون مجملاً، بمعنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾المنافقون: ٨ (المنافقون: ٨) ولقوله : "اليد العليا خير من اليد السفلى" [رواه البخارى في كتاب الوصايا الباب ٩، وكتاب الرقاق الباب ١١، وكتاب الزكاة الباب ١٨، وكتاب النفقات الباب ٢، ومسلم في كتاب الزكاة الحديث ٩٤-٩٧، الحديث ١٠٦].

وقوله : "علوّ الهمة من الإيمان" وقوله : "إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها" [رواه الطبراني في الكبير عن سيدنا الحسن عليه السلام، وابن عساكر عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

وقوله ﴿ ﴾: "خير ما أكل المرء من كسب يده والولد من كسب أبيه"[1].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ (الملك: ١٥) وليس السعي للدنيا للمؤمن العامل بأصول دينه وفروعه هو سعي للدنيا حقيقة، لكن عمل لله تعالى، وعمل لرسوله ﴿ ﴾، وعمل لجميع المسلمين، وإنما يهمل

(١)[رواه النسائي في كتاب البيوع الباب الأول، وابن ماجة في كتاب التجارات الباب ٦٤، وأحمد في الجزء الثانى صفحة ١٧٩، والجزء السادس صفحة ١٦٢، ١٧٣، ٢٠٢ وأبو داود في كتاب البيوع الباب ٧٧، والترمذي في كتاب الأحكام الباب ٢٢]

العمل للدنيا الجاهل بشعب الإيمان، لأن الإيمان بضع وسبعون شعبة، فمن عمل ببعض شعبه وترك البعض الآخر كان ناقص الإيمان ولا يكون مؤمناً كاملاً بمعناه إلا إذا عمل بكل شعب الإيمان، بقدر استطاعته أكثر شعب الإيمان متوقف على العمل في الدنيا من الزكاة والحج، والبر والصلة، وإكرام الضيف، ودفع المظالم، وإقامة الحدود، وتأسيس المساجد، ومعاهد العلم، والمستشفيات، وتربية الأولاد وحفظ الأعراض، حتى إن الصلاة المفروضة لا تؤدى بوجه أكمل إلا بالعمل للدنيا، لاحتياج المصلى إلى ستر العورة، وإلى ما يتطهر به، والمسجد الجامع الذي تقام فيه الجمعة، فالمسلم الصانع عامل لله، والتاجر والمزارع كل واحد من هؤلاء عامل لله، والإمام في محرابه، والعابد في خلوته، سواء عند الله، إذا حسنت النية لوجه الله الكريم، وربما كان الحراث والصانع والتاجر أقرب إلى الله تعالى عند حسن النية، والعمل لله من العابد الزاهد، لأن هؤلاء يعملون للنفع العام، وهذا يعمل لنفسه. يقول ﴿ ﴾: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته لله ولرسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) (١)

فالهجرة إلى الله تعالى هي حسن النية والإخلاص لله من المرء ولو كان في تجارته وزراعته، كما قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ

---

(١)[رواه البخارى في كتاب بدء الوحى الباب الأول وكتاب العتق الباب ٦ وكتاب مناقب الأنصار الباب ٤٥، وكتاب الطلاق الباب ١١، [فى الترجمة] وكتاب الإيمان الباب ٢٣، وكتاب الإكراه [فى ترجمة الكتاب]، وكتاب الحيل الباب الأول، ومسلم في كتاب الإمارة الحديث ١٥٥، وأبو داود في كتاب الطلاق الباب ١١، والنسائى في كتاب الطهارة الباب ٥٩، وكتاب الطلاق الباب ٢٤، وكتاب الإيمان الباب ١٩، وابن ماجة في كتاب الزهد الباب ٢٦]

﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ (النور: ٣٧). وكان أكثر أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ من المهاجرين تجاراً، فلم تلههم التجارة والبيع عن ذكر الله لحسن النية لله ولم تمنعهم عن الصلاة، لأنهم وهم في سعيهم وتجارتهم ينتظرون الصلاة بعد الصلاة، والمسلم في الصلاة ما انتظر، ومن تظاهر بالدين ليتزوج امرأة، وليصيب دنيا كانت هجرته إلى مقصده الذى نواه ولم يؤجر على الوسيلة التي اتخذها لنيل مقصده، ومصداق قوله ﴿ﷺ﴾: "ومن كانت هجرته إلى امرأة ينكحها أو دنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر إلى ما هاجر إليه". وقد يرى بعض من لا علم له بشعب الإيمان أن العمل للدنيا ينقص السالك في طريق الله ويشغل قلبه عن التوجه إلى جناب القدس الأعلى مع أنه صح في الحديث الشريف أن محل نظر الرب من العبد قلبه. [رواه مسلم في كتاب البر الحديث ٣٣،٣٤، وابن ماجة في كتاب الزهد الباب ٩، وأحمد في الجزء الأول صفحة ٣٧٩ والجزء الثانى صفحة ٢٨٥،٥٣٩]. من وجه قلبه إلى الله بإخلاص النية، كان مهاجراً إلى الله وإلى رسوله، ولو كان في بيع وتجارة أو صناعة وزراعة، أو إمارة أو جهاد، أو متبتلاً في محرابه، لا فرق عند الله بعد عمارة القلبو وتجميلها بإخلاص من النية بين الزاهد المتقشف، والأمير على منصته ما دام كل واحد منهما أتى الله بقلب سليم، وحسبنا حجة على ذلك، أن الصديق الأكبر، والخليفة بعد رسول الله ﴿ﷺ﴾، والإمام الأول للمسلمين، كان يحمل الخرج على كتفه وهو خليفة رسول الله ﴿ﷺ﴾ ويمشى به في الأسواق للتجارة، ولم يكن ذلك ينقص من مقامه العلى، ولا من حاله الروحانى، والعامل في الدنيا الذي يطعم الزاهد، والعابد المتجردَين من الدنيا أعبد منهما. قال ﴿ﷺ﴾: (الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ولا

يتحقق النفع لوجهه الأكمل إلا بعلم تزكو به النفوس وحكمة تتجمل بها الأرواح، أو مال يستعين به الفقير، وتؤسس به بيوت الله، ومعاهد العلم والمستشفيات، وتشيد به المدارس، ويعان به الدعاة إلى الخير، وكفى بعمل أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ حجة، فإن رسول الله ﴿ﷺ﴾ آخى بين المهاجرين والأنصار، فتوجه سيد من المهاجرين إلى مترل أخيه من الأنصار، فقال الأنصارى له، يا أخي إن لى زوجتين وهاهما فاختر لك زوجة منهما، وإلى كذا من النخيل لك النصف ولي النصف فقال المهاجر بارك الله لك في أهلك ومالك ونخلك، دلني على السوق فدله على السوق فخرج ورجع معه دراهم اكتسبها من البيع والشراء، وجاء رجل إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ يسأله فقال له: ألك حاجة في بيتك؟ فقال نعم لي شملة يا رسول الله فقال أحضرها، فأحضرها فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ من يشترى هذه؟ فقومت بدرهم ثم قبلها الآخر بدرهم ونصف ثم قبلها الآخر بدرهمين، فباعها له رسول الله ﴿ﷺ﴾، وأعطى الرجل الدرهمين، وقال: اشتر قدوماً وخشبة وحبلاً، فاشترى القدوم والخشبة والحبل فأخذ رسول الله ﴿ﷺ﴾ الخشبة وأصلح وضعها في القدوم، وقال له: أخرج فاحتطب خير لك فخرج واحتطب وباعها بدرهمين وصار يحتطب ويبيع حتى صار ذا مال. [رواه أبو داود في كتاب الزكاة الباب ٢٦، وابن ماجة في كتاب التجارات الباب ٢٥]. كل هذه الأدلة الجلية تؤيد أن المسلم يجب أن يكون عزيز النفس، إن استطاع ألا يرى لأحد عليه نعمة سوى الله فعل، حتى لا يذل لغير الله، ولا يفتقر لغير الله ولا يكون هذا العز حقيقة إلا بيقين يباشر القلوب، وعلم يبين له حقيقة نفسه وكشف يبين له أنه عضو عامل في الجسد الإسلامى، وجزء متمم للكل الإسلامي، وبذلك يسارع إلى الخيرات، ويقوم مجاهداً نفسه وهواه في

ذات الله تعالى، مجملاً بحلل الخلافة عند ربه، ينافس فيما يبقى، يجمع ما لا بد منه من الدنيا، ويبذله في نيل الفوز برضوان الله بعمل الخير لعباد الله ومن نسي نصيبه من الدنيا نسي نصيبه من الآخرة من باب أولى. إذا تقرر ذلك فالواجب على كل سلم - ما دام في جسد يحتاج إلى طعام وشراب ولباس وبالأولى إن كان مطالباً بحقوق عليه لوالدين وأولاد وزوجة - أن يقوم عاملاً لجلب ما لابد منه، مخلصاً النية في العمل لله، ناهجاً على الصراط المستقيم، مؤدياً ما وجب عليه من العبادة، وما رغب فيه من أعمال البر، وبذلك يكون مسلماً حقاً فتكون حركاته وسكناته في محرابه مصلياً، أو في السوق متجراً، أو في زراعته عاملاً عبادة لله تعالى، وبذلك يكون كل فرد من أفراد المسلمين كتر لجميع المسلمين، فالعمل في الدنيا مع حسن النية هو عمل لله تعالى، ولرسول الله ﷺ، وللدار الآخرة، وهو عز في الدنيا، وسيادة بها، وكفى المسلم شرفاً أن يكون عزيزاً في الدنيا، منعماً بالنعيم المقيم في الدنيا والآخرة، والله أسأل أن يوقظ قلوب أخوتى المؤمنين من رقدة الغفلة، حتى يعلموا بكل شعب الإيمان، كما قال ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون شعبة"(1). إنه مجيب الدعاء.

---

(١)[رواه البخارى في كتاب الإيمان الباب ٣ ورواه مسلم في كتاب الإيمان الحديث ٥٧، ٥٨، وأبو داود في كتاب السنة الباب ١٤، والترمذى في كتاب الإيمان الباب ٦ والنسائى في كتاب الإيمان الباب ١٦، وابن ماجة في المقدمة الباب ٩، وأحمد في الجزء الثانى صفحة ٣٧٩، ٤١٤، ٤٤٥.]

الفصل الثامن: حقيقة الدنيا والآخرة

الدنيا والآخرة هما داران مختلفان اسماً ومعنى، إحداهما كالصدف وهي الدنيا، والأخرى كالدر وهي الآخرة، ولكل منهما أهل وبنون، ولكل نوع منهما صفات وأخلاق، وسجايا، وأعمال

أولاً: حقيقة الدنيا

مشتقة من الدنو، وهو القرب، وحقيقتها أنها تصاريف أمور تجرى على الإنسان، اقتضاها وجوده مضطراً محتاجاً إلى ضروريات، وكماليات، مقهوراً بما فيه من القوى، وما هو خارج عنه، من يوم أن تلده أمه إلى أن يموت، وولادة أمه هي الولادة الجسدية، بعد أن أخذ دور كماله في الرحم، والموت هو الولادة النفسانية، بعد أن حصل كماله النفسانى في بطن أمه الدنيا، كما أن بعض الناس يولدون على نقص، أو يكونون مشوهين بعدم كمالهم في الرحم فكذلك الإنسان الذى يعوقه عن كماله النفساني في الدنيا عائق، من طمع أو حرص، أو حسد، أو جهالة، يموت ناقصاً، لجهله بنفسه، وبربه سبحانه وتعالى، وبذلك يستحق العذاب يوم القيامة، كما يحصل من الألم والمشقة لمن ولد ناقصاً من بطن أمه.

ثانياً: حقيقة الآخرة

هى مشقة من التأخر، وهى تصاريف أمور تجرى على الإنسان من وقت مفارقة النفس الجسد، إلى أبد الآبدين، ودهر الداهرين، فإن فارقت النفس الجسد كاملة، بما حصلته من العلوم النافعة، وما اكتسبته من العبادات

والأعمال الصالحة، وما أبقته من الآثار المفيدة، فازت بالنعيم المقيم، في فردوس الله الأعلى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ (الكهف: ١٠٧).

ثالثاً: هل كل الناس يعلمون حقيقة الآخرة؟

أكثر الناس من أهل الأديان وغيرهم يصدقون بالآخرة، ويؤمنون بها، ولا يعرفون حقيقتها، ولا مقدار ما فيها من المسرات والزينات، والجمال والكمال، وتوفيرها بحالة فوق تصور العقول، ويجهلون متى وقت الوصول إليها، وإن جميع من حصلوا العلوم العقلية، وارتضت أنفسهم بها وإن صدقوا بالآخرة التي هي مقر الأرواح، لكنهم جهلوا كل الجهل طريقها الموصلة إليها، وأخطئوا الوسائل المقربة إليها ومن قرأ كتب الفلاسفة يعلم أنهم سقطوا إلى هاوية الحضيض الأسفل، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠). وقد انمسخ الجاهل فهوى إلى أسفل السافلين، هوياً سجل به على نفسه اللعنة والمقت، وهم الذين مسخهم الله قردة وخنازير، وإن كانوا على صورة الإنسان، كالماديين، والدهريين، والحلوليين، ولا عجب! فإن من لم يمنحه الله العيون الإنسانية التي تشهد آيات الله في ملكه وملكوته، كيف يشهد ما يشهده الإنسان؟ فإن حكم على نفسه أنه في الأصل قرد أو نسناس، فهو صادق، وحقيقته أدنى من ذلك قال الله تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٤). كما يرى المرور (مسلوب العقل) نفسه أنه ملك، وهو أدنى الصعاليك، أو أنه نبي أو إله، ومثل هؤلاء لا يؤمنون بالآخرة ولا يعرفونها.

وسنبين بمشيئة الله تعالى فساد عقيدة هؤلاء القوم، وإن كانوا أحقـــر وأذل من أن يعتنى بآرائهم من له مسحة عقل.

رابعاً: هل الناس مؤهلون للدنيا والآخرة؟

إن الناس كلهم أبناء الدنيا والآخرة معاً، ولكن الله قدر في أزله أن يجعلهم نوعين في الدنيا والآخرة، وأشقياء كما قال سبحانه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (هود: ١٠٥).

خامساً: من هم أشقياء الدنيا وسعداؤها؟

كل الناس يعلمون من هو السعيد في الدنيا ومن هو الشقى، لأنهم حصروا السعادة في العافية، والمأكل، والمشرب، والمنكح، وما يعين عليه، وجعلوا الشقاء ضد ذلك، وتلك السعادة هي سعادة البهائم الرتع، ولا نحب تفصيلها لعلم الناس بها، وتحصيلهم عليها، وتلك السعادة، وتلك السعادة لا تستلزمه السعادة الباقية إلا إذا أعان الله أهلها على ما يحبه ويرضاه.

الفصل التاسع: الزهد وحقيقته

أولاً: الزهد في اللغة هو

الرغبة عن الشيء بإخراجه من اليد والقلب معاً، أو من القلب فقط، أما معناه عند أهل الطريق فهو الفرار عما يشغل القلب من الغواشى الكونية التي تحجبه عن شهود أنوار الآخرة، بإرادة الدنيا خاصة إرادة اختيار، فينغمس بكليته انغماساً يدل على عدم تصديقه بالآخرة؛ لأن المصدق بالآخرة لا يرضى بها بديلاً، فكيف ينساها بغيرها؟ وعلوم الزهد يجب أن تتلقى من العارف الربانى الحى، العالم بمراحل الطريق، ومقادير النفوس، وأمراض القلوب، وإنى أرى كثيراً من الناس يحجبهم الحظ والهوى عن البحث عن المرشد الكامل، بل وتحجبهم المعاصرة عن طلب العلم النافع، والمعاصرةحجاب، فيقرءون كتب السابقين في علوم اليقين، فتقصر أفهامهم عن دركها، وعقولهم عن تلقيها، وأنفسهم عن مشاهدة اسرارها، وأبدانهم عن القيام بها، ولكنهم إذا صحبوا المرشد، ينالون بصحبته فهم تلك العلوم بقدر استعدادهم، ويتلقون منه بقدر أعرافهم. الزهد للسالكين فيما حرم الله تعالى، فإذا تمتع السالك بنعم الله المباحة له، فهو الزهد في مقامه، فإذا زكى الله نفسه من الميل إلى شهواته المحظورة عليه، بين له المرشد طريق الزهد في الدنيا، والدنيا يا بنى بينها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله تعالى:

﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ ﴾

(الحديد: ٢٠) وفصل سبحانه هذا الإجمال بقوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ

مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران: ١٤). فإذا تميزت له حقيقة الدنيا وانكشف له الغطاء عنها، وأخرج الله حبها من قلبه، وأقبل عاملاً لله مخلصاً، وأقامه الله ملكاً على الأرض، ومنحه الله كلمة "كن" يتصرف بها فيما يحبه الله تعالى، فهذا ليس من أهل الدنيا، وإنما هو من أهل الآخرة، فإذا تحقق بالزهد في الدنيا لحظ بعين سره جمال الآخرة شهود لا علما، ظهرت له الدنيا جلية، فعلم مقدارها في جانب الآخرة فأراد الآخرة في الدنيا، عاملاً فيها بمحاب الله ومراضيه، وليس مرادى بالزهد في المباح أن يترك مالا بد للإنسان منه، من عمل في الدنيا، إنما أقصد بذلك أن يكون له في كل عمل من أعمال الدنيا رعاية، يبتغى بها رضوان الله الأكبر، فيأكل ليقوى على الجهاد والطاعات، ويلبس ليستر عورته ويحفظ صحته، ويتزوج ليشتبه برسول الله ﴿ﷺ﴾، ويدخر المال وما لا بدله منه ليفرغ قلبه، وليكون خزانة من خزائن الله – تعالى – فلا يأكل للذة، ولا ينكح لشهوة، ولا يدخر لتكاثر، فإذا زهد في المباح، وتمحن في هذا المقام، أسمعه المرشد علم زهده في نفسه، ومعنى زهده في نفسه، أن يسلم لله تسليما، فلا ينازع الله تعالى في حكمه الشرعي، ولا في حكمه القدري، وإني أعلم أن للإنسان شحا وهوا ورأيا، وأعلم أن تلك المعاني لا تفارق الإنسان، وزهده في نفسه هنا بدايته ألا يطيع شحه، بل يجاهد نفسه في مخالفة شحه وألا يتبع هواه، بل يخالفه في طاعة الله ورسول الله ﴿ﷺ﴾ وأن لا يعجب برأيه، بل يخالفه تسليما لله، ورسوله ﴿ﷺ﴾، وللمرشد القائم للحق بالحق، وهو مقام الرضا عن الله

تعالى، ثم يترقى في مقام الزهد في نفسه إلى أن يسمع من المرشد حقيقة نشأته الأولى، فتتضح له حقيقته، ويعلم أنه من طين، أو من ماء مهين ويلحظ بعين سره ما تفضل الله به عليه من جماله العلي، فجعله سميعاً بصيراً، مؤهلاً للخير، قلبلاً للفيض القدسي أو المقدس، ولديها يعلم سر الأمانة ويتحقق أنه قبل انكشاف هذا المقام له، كان ظلوماً جهولاً، ويسمع الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ (النساء: ٥٨).

وفي هذا المقام تقوى الحيرة، وتستعر نار المحبة، وتحن الروح إلى مجانسها وينسلخ من ملابس الغرور إلى لباس الإحسان، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ (الأعراف: ٢٦). فيتلطف له المرشد، ويمزج له هذا الشراب بظهور السياحة الملكوتية، فتسبح النفس في الملكوت الأعلى بمجانسها، وترجع إلى الجسم مقتبسة قبس الأنوار، حتى تتمكن، فيقوى الشهود حتى تشهد آثار الرب ﷻ في القلب، وفي الكون المحيط بها، فيحصل له الأنس في جسمها مشاهدة ما فيه من عجائب الآيات، فتشرق أنواره على الجوارح المجترحة التي هي قوى الحس، فتبصر العين آيات الله في الكائنات، وتضغى الأذن إلى تسبيح الكون، وتبسط اليد بالعطية، وتطهر البطن من الخطايا، ويحفظ الفرج من المخالفات، والقلب من لمة الشيطان، وهذا ما يسمونه الفناء في مقام الزهد، وهو التخلي عن مقتضيات الآدمية، حتى تطفأ نار الإبليسية، ويزول دخان البشرية، ولديها يكون الزاهد من عبيد الله المخصوصين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾ (الحجر: ٤٢). فإذا تمكن من هذا المقام أذاقه المرشد رحيق التوحيد بالتوحيد، في مقام التجريد والتفريد، فيفرد الحق

ﷻ بالقصد، ويفرد رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالاتباع دون غيره، فيزهد في الآخرة بعد زهده في نفسه فراراً إلى الله تعالى وتتريهاً لقلبه أن يطلب غير الله تعالى، ولسره أن يواجه غير الله تعالى، ولروحه أن تتحد بالخلق بعد إشرافها علـــى الحـــق، ثم زهد في زهده، حتى يرغب فيما رغبه الله فيه، فيحب الجنة، لأن الله تعالى رغبه فيها، فيكون أحبها لأن الله حببه فيها، فيحبها ويرغبها لله، ويسارع إليها شوقاً إلى الله؛ لأنه – سبحانه – وعد عباده الصالحين رؤية وجهه الكريم، في وطنـــهم الباقى (الجنة)، وهناك أسرار لا تباح بالعبارة، ولا تعلم بالإشارة تتلقاها الأرواح من نتف، ينطق بها المرشد الكامل مقهوراً في تجلي، تلك الحقائق تقتـــبس مـــن وميض بروقها الأرواح الطاهرة، هذا وإن طالب الله – تعالى – لا يضع قدمه في طريق الله تعالى إلا بعد أن يسلم الأمانة لأهلها قـــال تعـــالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ (التوبة: ١١١).

ثانياً: حقيقة الزهد

ليس الزاهد في الدنيا من زهد فيها، وقد أعرضت عنه، ونفرت منـــه، ولم تمكنه من متاعها، وضاقت عليه مع اتساعها، وهو مضطر إلى ذلـــك، لظهـــور عسرته، ونفاذ يسرته، وإنما الزاهد في الدنيا من أقبلت عليه، وحشدت فوائدها إليه، وحسنت له في ذاتها، وأمكنته من لذاتها فأعرض عنها وزهد فيها.

فالزهد على هذا المعنى، لا يقتضى أن يهمل الإنسان وجوه المكاسب، وأن يقتصر على الدون المطالب، ولكن الزاهد هو من يعيش كما يعـــيش النـــاس، ويعمل عملهم، ويسلك في محاولاته كل السبل المؤدية للنجح فيها، فإذا حصلت له ثروة، وكان يحب الزهد أمكنه أن يكون بإزائها على ما يجب.

فِرِّ يَانَفْسُ مِنْ مُحِيطِ ٱلْكِيَانِ   فَهْوَ دَارُ ٱلْفَنَا وَدَارُ ٱلْهَوَانِ
شَيَّدَ ٱلْجَاهِلُونَ فِيهِ بُيُوتًا   شَامِخَاتٍ لِرَاحَةِ ٱلأَبْدَانِ
زَيَّنُوهَا بِٱلْحَصِّ وَٱلْكِلْسِ حَتَّىٰ   جَعَلُوهَا فِي رَوْنَقٍ كَٱلْجُمَانِ
أَيُّهَا ٱلدُّورُ قَدْ سُكِنْتِ زَمَانًا   فِي زُهُوٍّ فِي بَهْجَةٍ فِي تَهَانِ
لَمْ يَخَافُوا رَيْبَ ٱلزَّمَانِ وَلَٰكِنْ   دَمَّرَ ٱلْكُلَّ حَادِثَاتُ ٱلزَّمَانِ

الباب الثالث عشر: الفرق بين أحوال الصوفية الهداة ومسالك المتمصوفة الغلاة

الفصل الأول: مشروعية ترك الأسباب والعكوف في الزوايا

إن ترك الأسباب في السلوك ثقة بمسبب الأسباب، وتوكلاً على الله تعالى، إذا لم يكن للمريد عائلة يتعين السعي عليها، سبيل من سبل مجاهدة النفس، وكان في مسجد رسول الله ﴿﴾ كثيرون من أهل الصفة، تركوا الأسباب توكلاً على الله تعالى، وعكوفاً على طلب العلم، وبهم – رضي الله عنهم – انتشر الدين وأحكامه، مثل أبي هريرة، وسلمان، وأبي ذر الغفارى، وصهيب، وسيدنا على بن أبي طالب عليه السلام وكثيرون – رضي الله عنه – وغيرهم، ولم ينكر عليهم رسول الله ﴿﴾.

الفصل الثانى: السياحة للمريد والخروج من العوائد والمألوفات وترك الكلام جائز وحسن شرعاً.

أما السياحة للمريد فأمر محبوب لطلب العلم، ولابتذال نفسه، وتحمل الغربة تزكية لها، وخروج من عوائده ومألوفاته، وهي سنة السلف الصالح رضي الله عنهم، أما صمت بعضهم وترك الكلام، فهو منهج من مناهج أهل الصفا، المحافظين على أنفاسهم، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: "وهل يكب الناس على مناخرهم في النار يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم"[(١)]. هذا إذا كان الصامت مشغولاً بذكر الله تعالى، واستحضار عظمته، فرارا من الخلق، حتى يتعين عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد تزكية نفسه.

---

(١) [رواه أحمد في الجزء الخامس صفحة ٢٣٧،٢٣٦،٢٣١، والترمذي في كتاب الإيمان الباب ٨، وابن ماجة في كتاب الفتن الباب ١٢]

الفصل الثالث: لبس الثياب الرثة مستنبط من سنن أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ

وأما لبس الثياب الرثة، والرضا بالقليل من اللباس والفراش، فهذا سبيل من سبل الزهاد المحسنين، الذين حقروا الدنيا، وزهدوا فيها، وهو من سنن أصحاب رسول الله صلوات الله عليه وعليهم.

الفصل الرابع: سند تحريم الخلوة بالنساء الأجانب

أما الخلوة بالنساء، فلا تتحقق حرمتها شرعاً إلا شرعاً إلا إذا خلا رجل بامرأة أجنبية، قال رسول الله ﷺ: "ما خلا أجنبي بأجنبية إلا كان الشيطان ثالثهما"[1]. والبشرية لا تفارق الإنسان مادام حياً، ومن اختلى بأجنبية مستحلاً ذلك كفر، فكيف يكون من أهل الطريق؟ ولكن إذا وجد رجل جمله الله تعالى بالعلم والخشية، فاجتمع معه نساء يسألنه عن دينهن في غير خلوة، فذلك مكروه إن أدى إلى مكروه، وهو مباح، وقد يتعين لطلب العلم، وإلا فالنساء إذا لم يعلمهن أزواجهن ولا آباؤهن، وهن مطالبات بفروع الشريعة، كيف يكون حالهن يوم القيامة إذا اتهمناهن في طلب ما أوجبه الله عليهن، وإني أرى من الواجب شرعاً على الوالد والزوج أن يعلم ابنته وزوجته ما لا بد لها منه من النساء، إن أمكن، أو بأن يسأل هو العالم عما يلزم ابنته وزوجته ويعلمهن. والوقوع في مكروه مع تحصيل واجب ليس كترك المكروه والواجب معاً، وكان نساء الصحابة رضى الله عنهم يسألن أمهات المؤمنين عما يجب عليهن.

(١) [رواه أحمد في الجزء الخامس صفحة ٢٣٧،٢٣٦،٢٣١، والترمذي في كتاب الإيمان الباب ٨، وابن ماجة في كتاب الفتن الباب ١٢].

الفصل الخامس: موقف الدين من ترك الصلاة والصوم

بقي ترك الصلاة والصوم: تعلم – يا ولدى – أن الصلاة مقصد ليست وسيلة، فإنها وجبت علينا بكلمة الله تعالى، وعمل رسول الله ﴿ﷺ﴾، وأن أهل الجهالة يظنون أن الصلاة وسيلة لغيرها، ومن جهلهم يدعون أنهم بلغوا درجة الشهود، أو مترلة الفناء، فبلغوا المقصود وتركوا الوسيلة، والصلاة مقصودة متعينة على المسلم، من بلوغه إلى آخر نفس من حياته؛ لأنها جمعت أنواع عبادات العوالم كلها، وأسرار الطريق كلها، قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) فالعبادة مقصد، والاستعانة وسيلة، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) فحكمة وجود الإنسان في وطن الكون عبادة الله تعالى، والصلاة جمعت أنواع عبادات الكائنات، وأسرار الطريق كما تقدم.

أما أنواع عبادات العوالم كلها فلأن القيام فيها عبادات الملائكة، ولأن الركوع عبادات الحيوانات المسخرة للإنسان بقدرة الله تعالى، ولأن السجود عبادات النبات الممتد على الأرض المسخر لنفع الإنسان، ولأن الجلوس عبادات الجمادات الثابتة لنفع الإنسان بإحسان الله، ولأن التفات الرأس في السلام عبادات الأفلاك في دورانها، والله ﷻ سخر لنا كل تلك العوالم، وأمرنا بالشكر عليها، فالصلاة شكر لله على تسخير تلك العوالم، علويها وسفليها.

أما كون الصلاة جامعة لأسرار الطريق فلأن الطهارة تجريد السر عما

سوى الله تعالى، ولأن التكبيرة محو لكل ما سوى الله تعالى، ولأن استقبال الكعبة إشارة إلى الاقتداء بالمرشد الكامل، ولأن قراءة القرآن إشارة إلى الحضور مع الله، والسماع منه، وأن الركوع خشوع النفس والحس والجسم والعقل لله تعالى، ولأن السجود على التراب رجوع إلى نشأته الأولى ليعلم العبد قدره أمام الله تعالى، ولأن التشهد أنس بالله تعالى، ولأن السلام وداع للدنيا والآخرة إقبالا على الله تعالى بالكلية.

فمن ترك الصلاة معتقداً إباحة تركها كفر، ومن تركها متأولاً أخطأ الصراط المستقيم، ومن تركها بعد سلب القوة التي بها التكليف فهذا لا يكلف، قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) وإني أقول إن تارك الصلاة استغراقاً في مشاهد التوحيد مخطيء، ومن ترك رعاية شهود التوحيد في عبادته محجوب، والصراط المستقيم حفظ رتبة العبودية، مع رعاية شهود التوحيد، والقرآن حجة، قال الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ (التوبة: ١٢٣) ثم قال سبحانه وتعالى بعد أن قاتلناهم: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ ﴾ (الأنفال: ١٧).

الفصل السادس: حكم الشرع في الذين يمشون عراة

أما الذين يمشون عراة، فإن غابوا عن أنفسهم وعن الخلق، وخرجوا هائمين على وجوههم من غير أن يقصدوا شخصاً معيناً يجلسون في بيته، ولا يأنسون بأحد، لاستغراقهم في الغيبة، فإن لهم العذر، ولكنهم في مرض روحاني، تجب معالجتهم، ويجب على من رآهم أن يرسلهم إلى المستشفى، مستشفى المجاذيب، أو يحبسهم في حجرة مظلمة، ويقلل أغذيتهم، ويبعد عنهم ما اعتادوا عليه من طعام وشراب، ومذكرات وذكر، وسماع للأغانى وإن تعروا من الثياب مع التمييز بين الصاحب والعدو، والأنس بمن يعرفونه قبل العري، والوحشة ممن ينكرونه قبله، فهم أعوان الشياطين، وأبواب الفتنة على المسلمين.

الفصل السابع: تحذير للهداة
من مسالك دعاة الجهالة الغلاة

وكثير من الناس يقوى الشيطان عليهم حتى يوقعهم في ترك الصلاة، والعري وإباحة ما حرم الله عنادا للحق، أو حيلة لجلب الدنيا بطريق يكرهها الله، وعمل يغضب الله تعالى وأهل الصفاء مع الله تعالى، وإذا غلبت عليهم الغيبة، وقهرهم الحال الناتجة عن مقامات اليقين، ومشاهد التوحيد، يفرون من أنفسهم، فكيف يأنسون بغيرهم من الخلق؟ والميزان في هذا هو الأستاذ المرشد الكامل، فإذا أقام مريداً في مجاهدة، أو رياضة، وغلبة الوجد أو الحال، مزج شرابه، فإن قهره حاله عطف عليه وعذره.

أما من لم يقمهم المرشد، بل أقاموا أنفسهم، أو التفتوا عن المرشد ميلاً إلى حظوظهم وأهوائهم، وقهرهم على الحال، فهو مرض روحاني، فإن الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا على صراطه المستقيم، وشرعه القويم، وكم أفسد السماع نفوساً نجسة، وقد أفسد الزار ببلاد مصر أعراضاً وعقولاً، والسماع يلزم أن يرد عنه من لم يحصل العلوم الشرعية، والآداب السنية.

ومن أباح السماع للجهلاء أفسد عليهم دينهم، ودنياهم وعقولهم، ومن أقام نفسه طبيباً مع الجهل بالطب فعليه الدية، فنحن نقوم لله تعالى بما أمرنا به، مشاهدين أنه سبحانه الموفق المعين، الهادي المنعم، المتفضل، فنستغفره بعد الصلاة مما حصل منا من الغفلة في الرعاية.

ونحمده – سبحانه – ونثني عليه لما تفضل به علينا من التوفيق والهداية والعناية لما أمر، وإن مسلماً يعتقد أن الله أمر في كتابه العزيز بالصلاة، وأن

رسول الله ﴿ ﴾ أمر بها، وقام بعملها، ملازماً محافظاً عليها، وكان آخر عملـــه من الدنيا أنه خرج للصلاة، يحمله علي وللعباس صلوات الله عليه وعليهم، وهو يجرجر رجليه حتى أدخلاه المحراب، وأبو بكر يصلي بالناس، فتنحى أبو بكـــر، وصلى رسول الله ﴿ ﴾، ثم حمل إلى فراشه فلحـــق بـــالرفيق الأعلـــى، ﴿ ﴾. وكذلك فعل عمر بن الخطاب، لما أن طعنه لؤلؤة – عليه لعنـــة الله – وآذنـــه المؤذن بصلاة الصبح، فقال: من يصلى بالناس يا أمير المؤمنين؟ فقال: هلك عمر إن كان فيه نفس ويؤخر صلاة الجماعة، ثم إلى الصلاة وصلى بالناس، ثم حمـــل إلى فراشه وفارق الدنيا لجوار رسول الله ﴿ ﴾، وآخر عمله من الدنيا الصلاة. هذا وليس بمسلم من يقتدي برجل يأمره بمخالفة أمر الله، وعمل رسول الله ﴿ ﴾، ويقتدى به، ولكن الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، فكيف تعلم هذا ولا تدفعه بيدك أو بلسانك؟ هذا وإني كما قدمت لـــك، إذا رأيت رجلاً سلب الله عقله، حتى صار لا يميز بين التمرة والجمرة، ولا بين التبر والترب، وترك العمل الواجب، فارحمه فإن الله يقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) أما الأدعياء فكل مؤمن بريء منـــهم، وإني – والحمد لله – كما أعلمه مني أكره نفسى إذا خالفت سنة، فضلاً عن فريضـــة، والله تعالى أسأل أن يمنحني وإخواني والمسلمين جميعاً التوبة والإنابة إلى الحق فإنه هو التواب الرحيم، ويحب سبحانه التوابين.

وهنا نحث إخواننا في جميع البلاد أن يغاروا لله – سبحانه وتعالى – ولسنة رسول الله ﴿ ﴾ وينبهوا المخالفين إلى التوبة، والله هو التواب العفو الغفور ﷻ.

الفصل الثامن: نصيحة لأهل الطريق

الحمد لله الهادى إلى أقوم طريق، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وبعد.

فلجميع أحبابي في الله تعالى، وفى رسوله ﴿ﷺ﴾، تعلمون أيدنى الله وإياكم بروح منه، أننا إنما اجتمعنا للحق، وتحابينا في الله، لنحصل العلم النافع، ونقوم بالعمل النافع، وتعلمون – يا أحبابي – أنه لا نجاة إلاباتباع سنة رسول الله ﴿ﷺ﴾، وإن الأولياء إنما أظهرهم الله تعالى لتأييد السنة، وإن الولى ولو أكرمه الله تعالى بإحياء الموتى ليس له أن يغير في الشريعة، فإن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) وإن كل من خالف السنة مضل ممقوت، ولو أظهر خوارق العادات، فإن الله – تعالى – لا يتخذ من خالف سنة نبيه ولياً، وكم كمن ساحر خبيث، ومستدرج عدو لله، أفسد العقائد، وأحل ما حرمه الله، وإني – يا أحبابي في الله – أنصحكم لله ولرسوله ﴿ﷺ﴾، إنكم إذا رأيتم مني أمراً منكراً، ونهياً عن معروف، أو إباحة لمحرم، أو ارتكاب كبيرة، تعلم من الدين بالضرورة، أن تتبرءوا مني، وإن لي يا أحبابي في معاصي الطاعات ما يشغلنى عن ارتكاب معاصي المخالفات، وقد انتشر بينكم يا أحبابي كثير من الشياطين، الذين ينتسبون إلى طريقي لإضلال المهتدين، لسلب الأموال، وفساد الأعراض، غير خائفين من عذاب الله، ولا من غضب رسول الله ﴿ﷺ﴾، فأنصحكم ألا تقبلوا منهم أحداً يدخل عليكم إلا إذا كان بيده سند صحيح بالطريق، أو إجازة مني بإمضائي، أو يرسل من قبلي ممن تعلمون حسن ظني به، والله تعالى أسأل أن يحفظكم من الأعداء

المنتسبين لهذا الطريق، وأن يؤيدني وإياكم بروحانية رسول الله ﴿ﷺ﴾، على كل شيء قدير.

هُوَ ٱلشَّرْعُ حِصْنُ ٱلأَمْنِ سِرُّ وُصُــولِي … بِهِ كَشْــفُ إِجْمَــالِي بِــهِ تَفْصِــيلِي
صِراطٌ عَلَيْــهِ ٱلْمُفْــرِدُونَ تَفــرَّدُوا … وَمِعْرَاجُ أَهْــلِ ٱلْحُــبِّ وَ ٱلتَّأْوِيــلِ
هُوَ ٱلْحَبْلُ حَبْــلُ ٱللَّــهِ مُــدَّ لأَهْلِــهِ … بِــهِ ٱعْتَصَــمُوا بِمَعِيَّــةِ ٱلْمَقْبُــول
وَمَنْ جَاوَزَ ٱلشَّرْعَ ٱلشَّرِيفَ هَوىٰ بِــهِ … إِلَى ٱلسُّفْلِ مِنْ غَاوٍ وَكُــلِّ جَهُــول
فَشَاهِدْ بِحِصْنِ ٱلشَّــرْعِ آيًــا عَلِيَّــةً … تَلُوحُ لَــكَ ٱلأَنْــوَارُ فِــي ٱلتَّنْزِيــلِ
تَحَصَّنْ بِحِصْنِ ٱلشَّرْعِ وَٱشْهَدْ مَشَاهِدًا … تَنَالُ بِــهِ ٱلزُّلْفَــىٰ بِخَيْــرِ وِصَــال
وَمَنْ رَاحِهِ ٱلصَّافِي ٱلطَّهُورِ تَنَوَّلَنْ … يُوَالِيــكَ وَهَّــابٌ بِنُــورِ سَــبِيل
تَلُوحُ لَــكَ ٱلأَسْــرَارُ فِيــهِ تَنَــزُّلاً … تُحَــاطُ بِوَجْــهٍ ظَــاهِرٍ وَجَمِيــلِ
بِرُوحِــكَ يَسْــرِي مُــنْعِمٌ مُتَفَضِّــلٌ … إِلَىٰ عَالَمِ ٱلْمَلَكُوتِ حَيْــثُ وُصُــولِي
وَحَصِّنْ شُهُودَكَ بِٱلشَّــرِيعَةِ سَــالِكًا … فَحَبْلُ ٱلْهُدَىٰ مِنْ نُــورِهِ ٱلْمَوْصُــول
وَحَصِّــنْ وُصُــولَكَ بِــٱلْيَقِينِ تَأَدُّبًــا … فَهَفْــوَةُ أَهْــلِ ٱلْحُــبِّ بِٱلتَّحْوِيــلِ
وَفِي ٱلْوَصْلِ إِنْ تَمْضِي عَلَى ٱلنَّفْسِ أَشْرَقَتْ … فَأَدَبِي لِشَــرْعِ ٱلْمُصْــطَفَىٰ مَــأْمُولِي
هُوَ ٱلشَّرْعُ لاَ يُخْفِيهِ كَشْفٌ وَمَشْــهَدٌ … وَإِجْمَالُــهُ عِنْــدَ ٱلصَّــفَا تَفْصِــيلِي
هُوَ ٱلْحَبْلُ حَبْلُ ٱللَّهِ فَٱعْتَصِــمُوا بِــهِ … مُخَالَفَــةً لِمُعَانِــدٍ وَجَهُــول
إِلَى ٱلتَّوْبِ سَارِعْ إِنْ هَفَــوْتَ تَأَدُّبًــا … مُخَالَفَــةً لِلْــوَهْمِ وَٱلْمَعْقُــول
وَلاَ تَلْتَفِتْ لِلْعَقْلِ فَٱلشَّــرْعُ حَــاكِمٌ … عَلَى ٱلْعَقْــلِ تَحْقِيقًــا بِــلاَ تَأْوِيــلِ
وَتَابِعْ رَسُــولَ ٱللَّــهِ حُبًّــا وَرَغْبَــةً … وَخَيْرُ ٱلْهُدَىٰ فِــي مُحْكَــمِ ٱلتَّنْزِيــلِ

الباب الرابع عشر: أصول آداب أهل الكمال من السادة الصوفية وآل العزائم من أهل المقامات العلية

الأدب معلوم عند أهل الدنيا، وهو تحصيل ما به يكون الإنسان نابه القدر، مؤهلا لمجالسة الملوك، ولتولي أعمالهم الخاصة والعامة، ولا يبلغ تلك الدرجة منهم إلا من حصل أخبار السابقين، وحوادثهم وآدابهم وحفظ أشعارهم، وحكمهم وخطبهم، وأنواع سياستهم في الحروب والمعاهدات وغير ذلك، وهذا علم اعتنى به أهل الدنيا؛ لأنه سلم الرقي إلى نيل قصودهم الفانية، ونحن نتكلم في آداب آل العزائم، وأهل العزائم إما مجتهدون، أو سائرون أو واصلون.

الفصل الأول: آداب المجتهدين من أهل العزائم

وهم أهل الرياضيات والمجاهدات، المسارعون إلى الانتظام في سلك الطريق، والباحثون عن الرفيق، وآدابهم غض البصر عما حظر عليه الشرع الشريف مما يجدد شهوة، أو ينتج إحتقارا وانتقادا، أو اعتراضا مما يلفت القلب عما هو مول وجهه إليه، فإن كثيرا من أهل الجهاد مرضت قلوبهم بسبب إطلاق النظر في المباحات، حتى يلقى بهم في مهاوي النظر إلى المحرمات، ثم كف الأذى باللسان والجنان، واليد، وحفظها من أحداث مالا إثم فيه من الشبهات، بحسب رتبة الإنسان ، فإن التساهل في صغائر الأمور يوقع في كبائرها، ومعظم النار من مستصغر الشرر، وكم وقع المجتهد في كبائر بسب نظرة أو كلمة، أو مد يد، وكم من نظرة أوجبت حسرة، أو كلمة أهرقت دماً.

جراحات السنان لها إلتئام ولا يلتأم ما جرح اللسان

ثم يقتل نفسه بسيف مخالفتها، ويكبح جماحها بالرياضة والمجاهدة، بشرط أن يكون مأذونا له فيها من المرشد، مما يوافق السنة المطهرة، وبشرط أن يكون المرشد كاملاً، ممثلاً للصورة المحمدية، علماً وعرفانا ومحافظة على الشريعة، فإن المرشد طبيب الأرواح، والطبيب إن لم يكن عالما أَضر علاجه، وفي الحكمة المتطيب إذا قتل فهو ضامن، وقاتل النفس أبر عند الله من قاتل الجسم.

الفصل الثاني: آداب السائرين من أهل العزائم

نوعان

والسائر منهم هو من انتظم في عقد الأخوة في الله بمعناها وعاهد الله ورسوله والمرشد على قبول الحق، والعمل به والمسارعة إلى نيل فضل الله ورضوانه، والمنافسة في الفوز بالتشبه برسول الله ﴿ ﴾.

النوع الأول: التروك

ترك النظر للأغيار، وترك الركون إلى غير الله تعالى، وترك الإتساع في المباح بحبس جميع الجوارح حبسا يجعلها تقف عند ما احله الله لها مع الحذر من الوقوع في الوسعة المضرة بالسائرين.

النوع الثاني: الأعمال

تبتديء أولاً بتصفية السر من الأكدار الشاغلة للقلب عن الإقبال على الرب – سبحانه – حتى يطمئن القلب بذكر الله وملازمة ذكر الله. بجميع القلب وخشوعه واستحضار معاني ألفاظ الذكر، ورعاية حضور المذكور ﷻ، قال رسول الله ﴿ ﴾ يقول الله تعالى ﴿ أنا جليس من ذكرني﴾[1] وقال تعالى ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ (البقرة: ١٥٢).ثم يوقظ الفكر، ليقوم بوظيفته، فيتفكر

(١) رواه الديلمي عن السيدة عائشة مرفوعا، والبيهقي عن أبي بن كعب، وأخرجه أبو الشيخ عن محمد بن نضر الحارسي، والأوزاعي عن أبي هريرة موقوفا ومرفوعا، والحاكم وصححه عن أنس.

في بدائع صنع الله تعالى بالاعتبار والمراقبة حتى يحصل له الحياء من لملك الجبار، الذي سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه؟

الفصل الثالث: آداب الواصلين من أهل العزائم

نوعان

الواصل هو من فاز بمعية رسول الله ﴿ ﴾ بأوصافها المذكورة في آخر الفتح، فتفضل الله عليه بمعيته سبحانه، فكان مع رسول الله ﴿ ﴾ اتحاداً بالسمع والطاعة، والانقياد والعمل بالعزائم قلبا وجسما، وكان مع الله وجدا وشهودا، فلا يرى نفسه خاليا أبدا، وإن كان في كهف في جوف الليل لرعايته، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد: ٤)

الأدب الأول: كتم الأسرار

كتم الأسرار التي ألهموها من الله تعالى غيرة عليها من أهل الجهالة الذين لم يقع بهم العلم على عين اليقين، فيفهموها كما يفهمون كلام الناس بعضهم لبعض، فيقعون في الشبهة والبدع المضلة، ومحافظة عليها من المدعين العلم، الذين حجب قلوبهم الجدل والبحث، وعلم الكلام وعلوم الأدلة العقلية التي وصفوها بدعة في الدين، وإذا سمعوها أنكروها قال رسول الله ﴿ ﴾: (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى فإذا ذكروه أنكره أهل الغرة بالله تعالى) (١)

---

(١)[رواه أبو عبد الرحمن السلمي في (الأربعين الصوفية) (٢/٨) وأبو عثمان النجيرمي في "الفوائد" (٢/٧/٢) عن نصر بن محمد بن الحارث: ثنا عبد السلام بن صالح: ثنا سفيان بن عيينة عن ابن جويح عن عطاء عن أبى هريرة مرفوعاً.

الأدب الثاني : مشاهد الأنوار

والأنوار إما النظر إلى الآيات في الكائنات، أو شهود معاني الصفات قامت بها الكائنات، ثم جولة الفكر في الغيب المصون بالاستبصار، مع عرض الأحوال على المرشد الكامل بدقة خوفاً من نزوغ النفس إلى شهوة خفية، أو رئاسة جلية، أو هوى يخفى على الواصل، ثم الأنس بالحق في كل شيء، وفي حالة الأنس تجب رعاية أدب العبد مع الرب، حتى لا يخرجه الأنس إلى الشطح، فيقع في سوء الأدب مع رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ بنظره إلى وارده مقدم على وصايا رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ وأحكام شريعته، فيقع في أحبولة إبليس، وينحط من الأفق الأعلى، إلى الدرك الأسفل أعاذني الله وإخواني من الغرور بالمقامات، ثم الفهم في دقائق الأسرار، مع الخشية من الملك الجبار، وهذه هي أصول أهل الكمال، من السادة الصوفية، وآل العزائم من أهل المقامات العلية.

ومن طريق السلمى رواه الديلمى في "مسند الفردوس" كما في "ذيل ثبت الشيخ إبراهيم الكورانى" (١/١٢) ورواه الطبس عن نضر بن محمد كما في اللآلىء (٢٢/١).ومن أفشي تلك الأسرار اوقع الناس في اللبس، وأضر نفسه بمعاداة أهل العلم المغرورين بجهلهم ،أو اضرها بتسليم أهل الجهل له و كتم الأسرار أول ركن من أركان الواصلين]

الفصل الرابع: الأدب العام

الأدب نوعان: أدب حسي، وأدب معنوي

فالأدب الحسي أدب الجوارح، والأدب المعنوي أدب القلوب، ولا تتأدب الجوارح إلا إذا تأدبت القلوب، ومتى رأيت سالكاً لم يحفظ جوارحه بحصون الأدب، فاعلم بأنه غير سالك؛ لأن القلب إنما يتأدب عن علم أو شهود، وأدبه له يكون بقدر علمه أو شهوده، ومن لا يعلم حضور الرقيب ولم يشهد معيته سبحانه – وتعالى – أطلق الجوارح غير هياب. ولا وجل، إذا اختفى عن الناس، وليس بسالك من خاف الناس ولم يخف الله تعالى، بل ليس بسالك من ظن أنه يخلو، ومن تحقق أنه يخلو فهو هالك، لا سالك، وتحققه بالخلوة أن تقع منه المعاصي إذا خفى عن الناس، وكم من هالك يظن نفسه سالكاً، قال ﴿ﷺ﴾: (إن الله حيي كريم يستحى أن يعذب المرء بين إخوانه)[1] والسالكون في الحقيقة المتحابون في الله تعالى، المؤثرون إخوانهم في الله تعالى على أنفسهم، والذين يتنافسون في نيل القرب من الله، والتشبه برسول الله ﴿ﷺ﴾. قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: "ينادي الله تعالى أين المتحابون لأجلي العاملون بطاعتي أظلهم يوم القيامة في ظلي يوم لا ظل إلا ظلى"[2] وقال ﴿ﷺ﴾: (إن المحابين بعضهم لله في أعلى قصر

---

(١)[رواه أبو داود في كتاب الوتر الباب ٢٣، والترمذى في كتاب الدعوات الباب ١٠٤، وابن ماجة في كتاب الدعاء الباب ١٣، وأحمد في الجزء الخامس صفحة ٤٣٨، والجزء السادس ٣١٤].

(٢)[رواه مسلم في كتاب البر الحديث ٣٧، والترمذى في كتاب الزهد الباب ٥٣، والدارمى في كتاب الرقاق الباب ٤٤ ومالك في كتاب الشعر الحديث ١٣، وأحمد في

في الجنة ويقول لهم: رضيتم؟ فيقولون رضينا وأنت راضٍ عنا)[1] وقال ﴿ ﴾: "لو أن عبدين متحلبين أحدهما في المشرق والآخر في المغرب لجمعهما الله يوم القيامة ويقول تعالى: هذا الذي كنت تحبه في الدنيا" وقال سيدنا داود عليه السلام في مناجاته: (إلهي وجدت لكل داء دواء فهل للمحبين دواء؟ فأوحى الله إليه يا داود ليس للمحبين دواء إلا لقائي).

من هنا ينتج أن المجانسة حكم لازم، وأن مقام كل إنسان بقدر من يحبه، ومن يأنس به.

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

والمرء مملوك لم يحب فليتق الله، وليحب أهل التقوى والعرفان، الذين يعدهم الله في الدنيا والآخرة أهل الصفاء، وقد تعامل سلفنا الصالح فيما بينهم بالدين، حتى رقى الدين، فتعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب، وتعامل القرن الثالث بالمروءة حتى فقدت، وتعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب، والناس الآن يتعاملون بالرغبة والرهبة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فلو رغب المسلم في كافر ذل، وأخلص في موالاته، ولو خاف من كافر تملق له، وإذا لم يرغب ولا يرهب من مؤمن أذله وأهانه.

أَهْلُ ٱلْعَزَائِمِ أَنْجُمُ ٱلآفَاقِ   أَنْوَارُهُمْ مِنْ حَضْرَةِ ٱلْخَلَّاقِ

الجزء الثانى صفحة ٣٢٨،٢٣٧، ٥٣٣،٥٣٣،،٣٧٠،٣٣٨والجزء الثالث صفحة ٨٧، والجزء الرابع صفحة ١٢٨،٣٨٦.

(١)[رواه البخارى في كتب الرقاق الباب ٥١، وكتاب التوحيد الباب ٣٨، ومسلم في كتاب الجنة الحديث ٩، والترمذى في كتاب الجنة الباب ١٨، وأحمد في الجزء الثالث صفحة ٨٨،٩٥].

أَهْلُ ٱلْعَزَائِمِ جُمِّلُوا بِجَمَالِ مَنْ   وَافَىٰ لَنَا بِٱلصِّدْقِ وَ ٱلأَخْلَاقِ
نُورُ ٱلشَّرِيعَةِ فِي ضِيَاءِ حَقِيقَةٍ   أَحْوَالُ أَهْلِ ٱلْحُبِّ وَٱلْعُشَّاقِ
أَهْلُ ٱلْعَزَائِمِ حَالُهُمْ نَبَوِيَّةٌ   سَارُوا بِسَيْرِ ٱلْحُبِّ وَٱلأَشْوَاقِ
أَرْوَاحُهُمْ سَاحَتْ بِمَلَكُوتِ ٱلسَّمَا   أَجْسَامُهُمْ فِي خِدْمَةِ ٱلْخَلَّاقِ
فِي حِصْنِ شَرْعِ ٱلْمُصْطَفَىٰ بِشُهُودِهِ   قَدْ شَاهَدَتْ أَنْوَارَهُ أَحْدَاقِي
أَهْلُ ٱلْعَزَائِمِ بِٱلشَّرِيعَةِ جُمِّلُوا   عِلْمٌ وَحَالٌ سِيرَتِي وَرِفَاقِي
ٱلرُّوحُ تَشْهَدُ رَبَّهَا مُتَنَزِّلاً   وَٱلْجِسْمُ يَعْبُدُهُ بِكُلِّ وِفَاقِ

أهل العزائم خمرهم قرآنى   فقهوا القرآن بنوره الروحانى
شربوا المدامة من يمين محمد   غابوا عن الآثار والأكوان
طابوا بكشفهموا وغابوا شاهدوا   وجهاً علياً في امحا أكوانى
فترى شبابهمو رجالاً جملوا   بالحب والأشواق والعرفان
وترى شيوخهم أئمة عصرهم   علماً وتبياناً وكل بيان
هم أنجم في هدى طه المصطفى   نص الحديث بصحة البرهان
آل العزائم منهموا الأفراد فى   علم الحقيقة والشريعة سيان
راح المحبة هيمتهم أقبلوا   بالعقل والأرواح والأركان
إن تشهدهم في النهار تراهمو   أبطال دين الله في الإمكان
فى ليلهم علم وذكر في صفا آل   المحبة في صفا الإيمان
فكأنهم في جمعهم رجل له   قلب توجه وجهة الرحمن
يا إخوتى أهل البرلس نلتمو   سر الأئمة من قديم زمان
أحببتموا المختار فزتم بالرضا   حتى بلغتم حظوة المنان

يا إخوتى الحب أعظم نعمة   تعطى لأهل الصفو والإيقان
أنتم رجال العصر فضل محمد   بشرى لكم في مولد العدنان
قد صرتمو نورا لعصر مظلم   والله جملكم بنور حنان
شكراً لرب منعم وهب الصفا   أعطى المحبة منه بالإحسان

وقال:

أَهْلُ ٱلْعَزَائِمِ تَابَعُوا ٱلْمُخْتَارَا   أَعْطَاهُمُو ٱلرَّحْمَٰنُ مِنْهُ فَخَارَا
أَهْلُ ٱلْعَزَائِمِ بِٱلْقُرَآنِ تَجَمَّلُوا   قَدْ شَاهَدُوا ٱلْمَلَكُوتَ وَٱلْأَنْوَارَا
صَوْمٌ صَلَاةٌ عِفَّةٌ وَصِيَانَةٌ   أَحْوَالُهُمْ قَدْ أَشْرَقَتْ إِسْفَارَا
فِي ٱللَّيْلِ رُهْبَانٌ مَخَافَةَ رَبِّهِمْ   قَدْ شَاهَدُوا وَجْهَ ٱلْعَلِيِّ جِهَارَا
أَعْمَالُهُمْ أَعْمَالُ طَٰهَ ٱلْمُصْطَفَىٰ   أَحْوَالُهُمْ تُجْلِي لَنَا أَنْوَارَا
أَهْلُ ٱلْعَزَائِمِ هُمْ أَئِمَّةُ وَقْتِهِمْ   نَالُوا ٱلْقَبُولَ وَشَاهَدُوا ٱلسَّتَّارَا
إِنْ تَلْقَهُمْ تَلْقَ ضِيَاءَ مُحَمَّدٍ   أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ فَدَعْ إِنْكَارَا
لَمْ يَتْرُكُوا سُنَنَ ٱلْحَبِيبِ لِأَنَّهُمْ   أَعْطَاهُمُو ٱلرَّحْمَٰنُ مِنْهُ مَنَارَا
فِي كُلِّ عَصْرٍ شَمْسُهُمْ قَدْ أَشْرَقَتْ   تُحْيِي ٱلْقُلُوبَ وَتَمْنَحُ ٱلْأَسْرَارَا
بُشْرَىٰ لِمَنْ فَازُوا بِصُحْبَةِ فَرْدِهِمْ   أَهْلُ ٱلْمَعِيَّةِ شَاهَدُوا ٱلْمُخْتَارَا

وقال:

أَهْلُ ٱلْعَزَائِمِ خَمْرُهُمْ قُرْآنِي   فَقِهُوا ٱلْقُرَآنَ بِنُورِهِ الرُّوحَانِي
شَرِبُوا ٱلْمُدَامَةَ مِنْ يَمِينِ مُحَمَّدٍ   غَابُوا عَنِ ٱلآثَارِ وَٱلأَكْوَانِ

طَابُوا بِكَشْفِهِمُو وَغَابُوا شَاهَدُوا ... وَجْهًا عَلِيًّا فِي ٱنْمِحَا أَكْوَانِي
فَتَرَىٰ شَبَابَهُمُو رِجَالاً جُمِّلُوا ... بِٱلْحُبِّ وَٱلأَشْوَاقِ وَٱلْعِرْفَانِ
وَتَرَىٰ شُيُوخَهُمُو أَئِمَّةَ عَصْرِهِمْ ... عِلْمًا وَتِبْيَانًا وَكُلَّ بَيَانِ
هُم أَنْجُمٌ فِي هَدْيِ طَٰهَ ٱلْمُصْطَفَىٰ ... نَصُّ ٱلْحَدِيثِ بِصِحَّةِ ٱلْبُرْهَانِ
آلُ ٱلْعَزَائِمِ مِنْهُمُو ٱلأَفْرَادُ فِي ... عِلْمِ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلشَّرِيعَةِ سِيَّانِ
رَاحُ ٱلْمَحَبَّةِ هَيَّمَتْهُمْ أَقْبَلُوا ... بِٱلْعَقْلِ وَٱلأَرْوَاحِ وَٱلأَرْكَانِ
إِنْ تَشْهَدَنْهُمْ فِي ٱلنَّهَارِ تَرَاهُمُو ... أَبْطَالَ دِينِ ٱللَّهِ فِي ٱلإِمْكَانِ
فِي لَيْلِهِمْ عِلْمٌ وَذِكْرٌ فِي صَفًا ... آلُ ٱلْمَحَبَّةِ فِي صَفَا ٱلإِيمَانِ
فَكَأَنَّهُمْ فِي جَمْعِهِمْ رَجُلٌ لَهُ ... قَلْبٌ تَوَجَّهَ وِجْهَةَ ٱلرَّحْمَٰنِ
يَا إِخْوَتِي أَهْلَ ٱلْبُرُلُّسِ نِلْتُمُو ... سِرَّ ٱلأَئِمَّةِ مِنْ قَدِيمِ زَمَانِ
أَحْبَبْتُمُو ٱلْمُخْتَارَ فُزْتُمْ بِٱلرِّضَا ... حَتَّىٰ بَلَغْتُمْ حُظْوَةَ ٱلْمَنَّانِ
يَا إِخْوَتِي ٱلْحُبُّ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ ... تُعْطَىٰ لأَهْلِ ٱلصَّفْوِ وَٱلإِيقَانِ
أَنْتُمْ رِجَالُ ٱلْعَصْرِ فَضْلُ مُحَمَّدٍ ... بُشْرَىٰ لَكُمْ فِي مَوْلِدِ ٱلْعَدْنَانِ
قَدْ صِرْتُمُو نُورًا لِعَصْرٍ مُظْلِمٍ ... ٱللَّهُ جَمَّلَكُمْ بِنُورِ حَنَانِ
شُكْرًا لِرَبٍّ مُنْعِمٍ وَهَبَ ٱلصَّفَا ... أَعْطَى ٱلْمَحَبَّةَ مِنْهُ بِٱلإِحْسَانِ

من مؤلفات الامام المجدد السيد محمد ماضي ابوالعزائم

فى جانب تفسير القرآن :

١- هذا السفر الجليل " أسرار القرآن ".

٢ تفسير سورة القدر.

فى جانب العقيدة :

١- كتاب عقيدة النجاة .

٢- كتاب الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها.

فى جانب العلوم الفقهية:

١- كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ﷺ وآله﴾.

٢- صيام أهل المدينة المنورة.

٣- هداية السالك إلى علم المناسك .

فى جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

١- سيرة النبى ﴿ﷺ وآله﴾

٢- وسائل إظهار الحق .

فى جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

١- النشأة الثانية.

٢- الوسيلة وما إختلف فيه من السنة والبدعة.

٣- الشفاء من مرض التفرقة.

٤- الجفر.

٥- تحذير الدين من بيع أراضى فلسطين.

٦- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين.

٧- الرد على نظرية دارون.

فى جانب الأخوة الإسلامية :

١- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾.

٢- الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

فى جانب المناسبات الدينية :

١- السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج

٢- بشائر الأخيار فى مولد المختار

٣- مشارق البيان فى فضائل شعبان

٤- لبيك اللهم لبيك.

فى جانب المسرحيات الدينية :

١- محكمة الصلح الكبرى.

٢- العالم والتاجر والفلاح.

٣- المقتصد والمسرف والفاسد.

٤- السياسى والحكيم والغشيم.

٥- الصالح واللص والسكرى.

فى جانب الصلوات والأدعية :

١- نيل الخيرات بملازمة الصلوات.

٢- الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية.

٣- الأدعية والاستغاثات الكبرى.

فى جانب التصوف :

١- شراب الأرواح من فضل الفتاح.

٢- تذكرة المرشدين والمسترشدين.

٣- معارج المقربين.

٤- الطهور المدار على قلوب الأبرار.

٥- من جوامع الكلم.

٦- الطريق إلى الله تعالى.

٧- الفرقة الناجية.

٨- دستور السالكين طريق رب العالمين.

٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك.

١٠- مصطلحات الصوفية

١١- آداب أل العزائم

١٢- دروس تزكية النفوس

١٣- موارد أهل الصفا

١٤- قبس من المضنون

١٥- الصوفية والتصوف

فى جانب المواجيد:

١- مواجيد شهر محرم، صفر، ربيع أول، ربيع آخر، جماد أول، جماد آخر، رجب، شعبان، رمضان.

٢- المواجيد العزمية فى مواجهة الروضة الحسينية.

٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب.

تليفون المكتبة/

002 022 3901030

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الباب الأول: من هم الصوفية	
الباب الثانى: في علوم الصوفية وأحوالهم	
الباب الثالث: من أسرار الصوفية في العلم والإيمان	
الباب الرابع: طريق الصوفية في المعرفة	
الباب الخامس: في الذكر وأنواعه وروابطه	
الباب السادس: عبارات أئمة الصوفية في التوحيد	
الباب السابع: عقيدة الصوفية في الإيمان	
الباب الثامن: مذهب الصوفية في المحافظة على الحكمة	
الباب التاسع: مشاهد الصوفية في حكمة تقدير المعاصى	
الباب العاشر: وصايا للسالكين طريق رب العالمين	
الباب الحادى عشر: أسباب تنوع الأفكار عند الصوفية	
الباب الثانى عشر: أصول الفضائل والخلق والتخلق	
الباب الثالث عشر: الفرق بين أحوال الصوفية الهداة ومسالك المتمصوفة الغلاة	
الباب الرابع عشر: أصول آداب أهل الكمال من السادة الصوفية وآل العزائم من أهل المقامات العلية	
الفهرس:	